الدكتور محمد البهي



الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت : ٩٢٦٤٧٠

الطبعة الثانيـة

١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

* خرج كتاب : « غيوم تحجب الاسلام » فى طبعته الأولى يحمل إنذاراً للمسلمين من تلك الغيوم التى تحول دون أن يروا منهج الاسلام فى حياتهم حقيقة واقعة . وهو منهج يقوم على دعامتين :

الدعامة الأولى : الأخذ بالقيم الانسانية .

والدعامة الثانية : عدم الإسراف فى طلب المتع المادية واستهلاكها ، مع رد الاقتصاد فى قيمتة إلى الوضع الطبيعى له ، وهو وضع : أنه وسيلة، وليس غاية يتجه إليها المسلم بالعبادة . ولكن ظل بعض المسلمين متمسكا بالاتجاه المادى فى نظام الغرب ، بينما البعض الآخر منهم اتجه إلى الشرق فى نظامه . وهو نظام وضع الاقتصاد والمادة موضع الإله الخالق فى حياة الانسان والمجتمع : يعبد من دون الله . حتى اختل العدل بين المسلمين جميعاً ، وأصبحنا نرى منهم المسرف فى ترفه ، والشقى فى حرمانه ، ونرى مجتمعاتهم ما يؤكد انتماءه إلى الغرب ، أو ما يؤكد انتماءه إلى الشرق . ولم يفكر أى فريق منهما فى اعلان الانتماء إلى الاسلام ، بل نسوا منهج الاسلام فى ترابطهم ، وتماسكهم ، كما نسوا اجتماعهم على كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وعرضوا أنفسهم « للتبعية » التى أذلتهم وأسقطتهم من قوتهم ووحدتهم ، وعزلتهم بعد أن غررت بهم . وهكذا تتلاشى مجتمعاتهم اليوم واحداً بعد الآخر ، وتذوب فى مجتمعات أخرى غريبة على دينهم وتراثهم الحضارى والفكرى .

***

* وآن الآن لهذه الحجب أن تسقط ، وآن لعلماء المسلمين أن يكشفوا عدوهم بينهم ومن حولهم فى تشوية رسالة دينهم .. وآن لهم أن يدركوا : أن الشباب المسلم المعاصر يواجه محنة قاسية ، وهى محنة

التشويش والخلط فى فهم الاسلام، كنظام لسلوك الانسان واعتقاده : آن لهم أيضاً أن يعودوا إلى القرآن مباشرة ليستلهموا منه نظام الاسلام فى جميع جوانب حياة الانسان .

فرسالة الاسلام تدعو للقيم الانسانية فى مسلك الانسان مع الانسان . فلا خصومة، ولا سقوطاً فى شعوبية أو تفرقة عنصرية، بل رحمة وأخوة وتعاون . وتدعو لوحدة الألوهية فى الاعتقاد . فلا شركاء ولا وثنية. وبالتالى فلا نفاقاً ولا انتقالا من عبادة محسوس آفل نجمه إلى عبادة محسوس آخر يصعد فى الأفق طالعه إلى حين .

رسالة الاسلام إذ تدعو إلى تحقيق العدل والتوازن بين قوى الذات الواحدة، وبين أفراد المجتمع جميعاً، فإنها تدعو إلى السعى نحو القوة والمنعة . والعدل الإلهى إذا كان مصدره كتاب الله فى أى عهد من عهود الرسالة الإلهية فإن القوة تكمن فى حسن استخدام نعم الله التى أنعم بها على الانسان فى الأرض التى نعيش فوقها .. تكمن فى حسن استخدام « الحديد » كنعمة أنزلها القرآن منزلة الكتاب :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط،

وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوى عزيز » (١) .

ه إن الذين يحاولون تشويه الاسلام اليوم من أعدائه، وبذلك يحجبو عن أبنائه جيلا بعد جيل، لم يزالوا فى كمهم وفى محاولاتهم أكثر وأقو:

(١) الحديد : ٢٥

من علماء المسلمين فى رسالتهم نحو الاسلام . ولعل هذه الطبعة من الكتاب تصل صيحاتها إلى آذانهم وقلوبهم فيشتد عزمهم على مواصلة رسالتهم ، كما تصل إلى قلوب الشباب المسلم فيقف بالوعى والإيمان فى مواجهة مايصدره أعداء الله من أكاذيب ، وما يكرره غير الفاهمين لرسالة الله مما يبعد هذه الرسالة عن الأهلية فى قوة المسلمين وفى تماسكهم اليوم وغداً .

والله الموفق ..

محمد البهى

مصر الجديدة فى ١٩ صفر ١٣٩٩ هـ

١٨ يناير ١٩٧٩ م

مقدمة الطبعة الأولى

فريقان ، كل منهما يحجب الاسلام بعمله عن أن يراه الشباب المسلم المعاصر ، فريق يثير الاتهامات والشبهات حول الاسلام وحول رسوله الكريم ويثير الشكوك والريب فى قيمتهما ، وفريق آخر يميل عن غير قصد إلى إبعاد الاسلام عن أن يدل دلالة واضحة على هدفه وما يبتغيه من خط مستقيم لهداية الانسان فى اعتقاده ، وتفكيره ، وسلوكه .

• فريق المستشرقين — وبالأخص فى القرن التاسع عشر — ومعهم المجددون فى التفكير من المسلمين الذين ينتهجون نهجهم ، أو الذين يقفون تحت تأثير اتجاه سياسى معين ومصلحة خاصة . هؤلاء ، وأولئكم يحاولون : أن يهزأوا بالوحى الإلهى ، وبالدين السماوى ، ويدعون أنه أمر غيبى ليس هناك دليل مادى على وجوده . وبالتالى يرون فى الوجود المادى كل خير ، وكل حق ، وكل حقيقة .

•• ويحاولون من أجل ذلك أن يصفوا مجتمع المؤمنين بأنه مجتمع المتخلفين الواهمين ، بينما يصفون مجتمع الوجود المادى بأنه المجتمع الصاعد ، والمجتمع التقدمى ، والمجتمع الذى يقف بقدميه على أرض ثابتة .

•• ويحاولون أن يتهموا الاسلام بالجمود ، وبعدم استطاعته الحركة كى يتابع الأحداث المتجددة ، ومن ثم إن كانت له صلاحية بالأمس البعيد ، لسبب من الأسباب ، فليست له فى الحاضر ولا فى الغد

صلاحية تعطى للناس فى أى مجتمع ما هم فى حاجة إليه ، من اطمئنان واستقرار فى العلاقة وفى النفوس .

.. ويتهمون الرسول عليه الصلاة والسلام — كما اتهمه الماديون الوثنيون بمكة بالأمس على عهد نزول الوحى — بالادعاء وعدم الصدق حيناً ، وبالتلفيق فيما جاء فى القرآن حيناً آخر . كما شوهوا هجرته مع الرسالة إلى « يثرب » وجعلوها هرباً من أجل حياته ، ثم يستهزئون بما اتخذه عمر رضى الله عنه من جعل الهجرة بدأ لتاريخ المسلمين ، استكمالا لاستقلال شخصيتهم .

* * *

* وفريق العلماء من المسلمين — ورجال الأزهر فى مقدمتهم — يتحدثون عن الاسلام وقد قرأوه فقط فى كتب المتأخرين من المؤلفين الاسلاميين الذين انتهى عهدهم بما يعرف الآن بكتب التراث ، كما يتحدثون عن المذاهب الجديدة والتحديات الفكرية والأيديولوجية المعاصرة وقد قرأوا عنها فى ملخصات الصحف والدوريات ، أو أخذوا مفهومها من ألفاظها وتعبيراتها : كالاشتراكية من الشركة أو المشاركة . والمادية من المادة .. إلخ .. فيجيء حديثهم غير موصول بالقرآن فى نصاعته وإحكام دلالته ، وغير متصل أيضاً بالمعانى العلمية التى استقرت لتلك الأيديولوجيات . وبذلك يثيرون غيوماً أو لبساً على ما يريده كتاب الله ، وتفصح عنه سنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

فريقان إذن — فريق يعمد إلى الإساءة والحط من شأن الاسلام ، وفريق لا يعمد إلى الإساءة ، وإنما تجيء إساءته عن ادعاء فى المعرفة ، وغرور بما وصل إليه فى فهم كتاب المؤلف . وليس هو كتاب الله .

والشباب حائر ، ويريد أن يكون مسلما . فإن ذهب إلى ما يكتبه الأولون خشى على نفسه من الضلال . وإن ذهب إلى ما يكتبه بعض العلماء لم ير فيه ما ينقذه . وظل يسأل عن الاسلام — أين هو ؟

وهذا الكتاب الذى نقدم له يجلى – فى اختصار – اللبس الذى يثيره الفريق الأول فى بعض قضايا تتردد كثيراً ، وهى اتهامات ودعاوى كاذبة وقائمة على الخداع ، كما ينبه : لماذا يفقد العلماء المسلمون اليوم قدرتهم على ملازمة الاسلام والوقوف عنده ، ويوضح أن الذنب فى هذا لم يكن ذنب جيل واحد منهم هو مسئول عنه . وإنما هو مسئولية أجيال ، وحكومات ، وعهود سياسية ، وتخطيط استعمارى وصليبى رهيب بين المسلمين فى مجتمعاتهم ، وبمعاونة فريق منهم .

والله الموفق والمعين ..

محمد البهى

مصر الجديدة فى صفر سنة ١٣٩٣ هـ

إبريل سنة ١٩٧٢ م

★ ★ ★

الفصل الأول

الروحية .. والمادية

الروحيـة :

ه هى جوهر الانسانية وخصائصها . . هى العقل والقلب . . هى الفكر والإيمان . . هى المقابل للبدن وشهوة الغرائز وهوى الانسان .

فإذا كان هناك حديث عن حكمة الانسان فهو حديث عن روحيته .

وإذا كان هناك حديث عن العدل ، والمشاركة ، والتعاون ، والمحبة ، وغير ذلك مما يطلب من الانسان مباشرته ، فهو حديث عن بعض خصائص هذه الروحية .

وإذا كان هناك حديث عما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك فى التصرفات والسلوك فهو حديث عما تدعو إليه روحية الانسان .

ه الروحية ليست أمراً ملصقاً بالانسان ولا غريباً عن طبيعته ، لأنها إذا كانت جوهر انسانيته فإنها مركز حياته ونشاطه .

والبدن إذن بما له من شهوات وأهواء — أو بما له من غرائز ونزعات — هو فى خدمة الروحية ، وفى الوقت ذاته هو مجال نشاطها .

إن غرائز الانسان — وبالأخص غريزة حب البقاء — تمده بالحيوية وبالطاقة التى تساعده على ممارسة نشاطه كإنسان .. تمده بالمحافظة عليه كفرد وكشخص ، وباستمرار وجوده كنوع . فتمده بالأكل والشرب . وتدفعه كذلك إلى النسل . وهى فى مد الانسان بطاقات العمل والحركة لا تحتاج إلى شعور ، بقدر ما تندفع اندفاعاً حيوانياً إلى تأدية غايتها .

وهذا الاندفاع الحيوانى للغرائز إن كان مثمراً فى المحافظة على بقاء الانسان كفرد ، وكنوع .. فقد يخرج به عن طريق الحكمة ومستوى الاعتدال . وعندئذ يمكن أن يكون مصدراً للتقاتل . ومن ثم يكون سبباً فى شقاء الانسان إن لم يكن سبيلا إلى فناء البشر .

وهنا — لكى تستمر ثمرة الاندفاع فى الانسان للمحافظة على بقائه ، دون أن تصحبه قوة الميل نحو التخاصم والتقاتل — كانت غرائز البدن يجب ن تكون فى مجال النشاط لروحية الانسان أو لحكمته .

ووضعت غرائز الانسان فى آدم وحواء موضع التجربة فى مجال النشاط الروحية الانسانية فيهما أو لحكمتهما وعقلهما ، عندما أمرا من الله سبحانه : بأن لا يقتربا من شجرة معينة فى الجنة ، فى وقت أحل لهما كل شىء فيها ، عدا هذه الشجرة : « **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** » (١)

ولكن حكمة الانسانية فى آدم وحواء لم تستطع أن تحد من اندفاع شهوة الغريزة فيهما نحو الاقتراب من الشجرة الممنوعة ، فاقتربا وأكلا منها . وبذلك برهنا على أن العقل فى الانسان الذى أريد له أن يمارس سلطته فى توجيه غرائز البدن حتى لا تجمح فى اندفاعها فى سبيل المحافظة على بقائه .. قد عجز عن ممارسة السلطة حينئذ ، وتم ما كان من ظهور عجزه عن عدم تعريض الانسان للنقص : « **فوسوس لهما الشيطان** (ووسوسة الشيطان كناية عن مراودة النفس وترددها فى ترك اندفاع الغرائز يأخذ مجراه . أو فى وضع حد له) **ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما** » (أى ليظهر نقصهما فى عجز العقل عن أن يقيد اندفاع الغرائز فى الانسان) (٢) .

وباقتراب آدم وحواء من تلك الشجرة التى حرمت عليهما ، عرفا : أن أمرهما قد انكشف وأن ما تميزا به من ميزة العقل على الملائكة قد أخفق الآن

---

(١) الأعراف : ١٩ (٢) الأعراف : ٢٠

فى تحقيق غايته ، وذلك بعدم وضع حد لاندفاع شهوة الغريزة . وأصبح موقفهما حرجاً أمام من منحهما هذه الميزة ، وهو خالقهما وخالق الكون كله ، وهو الله سبحانه وتعالى. وكان شأنهما عندئذ شأن المتحرج الذى انتابته الحيرة ، وتملكه الخجل : « **فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما** (أى انكشف أمرهما فى عدم استطاعة العقل ستر نقصهما الكامن فى اندفاع الغرائز وانطلاقها فى تحقيق شهوات البدن) **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** » (كناية عن الحيرة ومحاولة ستر خجلهما)(١) .

وبإخفاق العقل فى الانسان ممثلا فى آدم وحواء ، فى تجربة الأكل من أشجار الجنة ... ظهر أن طاقة العقل فى حاجة إلى ظهير ومساندة ، لكى يؤدى العقل الغاية المرجوة فى ممارسة السلطة فى توجيه شهوات الغرائز وأهوائها ، وفى وضع حد لها ، عندما يبدو خروجهما عن مهمة امداد الانسان بالحيوية والقدرة على العمل والحركة وعلى المحافظة على بقائه .. إلى المقاتلة والتخريب .

وليس معنى احتياج العقل فى الانسان لتحقيق روحيته الانسانية وخصائصها فى السلوك والعلاقات ، إلى ظهير ومساندة .. أنه قد ألغى اعتباره فى الانسان كلية ، بل اعتباره باق ، ولم يزل ميزة للانسان ومنة من الله عليه : «**يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم** (واللباس هنا كناية عن العقل . وسوآت الانسان نقصه فى اندفاع شهوات غرائزه) **وريشا** (أى وكما أن العقل فى الانسان ساتر وحاجز دون ظهور نقصه من اندفاع غرائزه .. هو أيضاً زينة له . لأنه طالما يستر نقصه فهو جمال له) **ولباس التقوى ذلك خير** » (أى وهذا اللباس الذى يتقى به النقص – وهو لباس العقل – خير وفضل من الله) (٢) .

---

(١) الأعراف : ٢٢ (٢) الأعراف : ٢٦

وظهير العقل ومساندته فى أداء وظيفته من مباشرة سلطة التوجيه على الغرائز لا تكون إلا منة أخرى من الله . لأنه الخالق للانسان . والانسان الآن ما زال فى حاجة . ومن به حاجة لا يسدها بذاته ، وإنما تسد من غيره . وليس هناك فى الوجود بعد الانسان إلا الملك ، والله . فإذا كان الملك قد سجد لأب الانسان وهو آدم فليس هو ذا قدرة على الإعطاء له . فلم يبق إلا الله الخالق جل جلاله : الذى خلق الانسان على نحو ما خلقه مميزاً ومكرماً.

ومنة الله الثانية على الانسان — بعد منته بخلق العقل فيه — هى هداية الله فى رسالة الرسل : « **يا بنى آدم إما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** » (١) .

* واستقلال العقل الانسانى بتوجيه الانسان على الدوام إذن أمر غير مأمون . وهو فى حاجة إلى مساعدة من نوع نشاطه . ونشاطه السعى نحو الحكمة فى التوجيه . . أو نحو السمو بالانسان فوق جموع الشهوات . وهداية الله فى رسالته إلى الانسان قوامها : الحكمة فى التوجيه .لأنها من غنى بذاته لا يحتاج إلى غيره . ولذا ليست له غاية سوى تحقيق الانسان لإنسانيته فى سلوكه ونشاطه . . ليست له غاية سوى تحقيق الانسان لروحية الانسانية وجوهرها .. سوى تحقيق خواصها .

فإذا حقق الانسان الروحية فيه ، فقد ارتفع وسما بالفعل فوق جموح الشهوات والأهواء . . أى علا فوق الغرائز وساد عليها . لا بإلغائها فى الانسان ، لأن ذلك أمر غير مستطاع . وإنما بتوجيهها ، وبوضع حد لانطلاقها ونشاطها .

وإذا أخفق الإنسان فى تحقيق هذه الروحية الانسانية فيه ، سقط إلى مجال الغرائز ، وتركها تأخذ زمام الأمر فى حياته . وعندئذ لا يضمن لنفسه

---

(١) الأعراف : ٣٥ — ٣٦ .

الاستقرار . بل أصبحت حياته يسيطر عليها القلق ، إن فى حال إشباع غرائزه ، أو فى حين قصورها عن مستوى الإشباع .

وحال هذه النفس عندئذ أشبه بحال الكلب . إذ من خصائصه القلق . فهو دائماً يلهث ، سواء عند تتبعه واضطهاده ، أو عند تركه بدون تتبع واضطهاد: « **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها** (أى اقرأ أيها الرسول على من توجه إليهم دعوتك : خبر ذلك الذى بلغته هداية الله فأعرض عنها . وهو ليس فرداً بعينه بل هو كل من شأنه هذا الشأن) **فأتبعه الشيطان** (أى فراودته النفس الأمارة بالسوء فيه . وهى تلك النفس التى تحكمها الشهوات والغرائز ، وهى لذلك شيطانه ومصدر شره) **فكان من الغاوين** (وتحت مراودة هذه النفس له جنح عن الطريق المستقيم وأصبح ضالا) . **ولو شئنا لرفعناه بها** (وكان من الممكن – إذا شاء الله ونفذت إرادته – أن يرتفع ويسمو بهداية الله عن هذا الوضع الذى صار إليه من جموح ، وضلال ، وتدل فى طاعته لغرائزه وشهواته) **ولكنه أخلد إلى الأرض** (أى ولكنه مال وسكن إلى ما هو أدنى وهو محيط الغرائز والشهوات . والتعبير عن هذا المحيط بالأرض هو تعبير بما يشعر بالفرق الواسع بين سمو الهداية وانحطاط الشهوات ، على نحو ذلك الفرق الذى بين السماء والأرض) **واتبع هواه** (أى وسبب تدليه إلى هذا الأدنى المنحط : أنه اتبع هواه ولم يتبع عقله وحكمته . إذ لو اتبع عقله وحكمته لسار فى طريق هداية الله) **فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث** (وحاله عندئذ كحال الكلب فى عدم استقراره وقلقه . فهو قلق دائماً ، سواء : اضطهده الإنسان أو تركه وشأنه ، فهو يلهث فى الحالين . وكذلك من اتبع هواه هو قلق دائماً : إن لم تتحقق رغبته فى شهوة ما فهو قلق من عدم تحققها ، وإن تحققت له واحدة فهو قلق من أجل المزيد فيها) **ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا** »(1) (أى وهذا الحال

---

(1) الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦

هو حال أولئكم جميعاً الذين كذبوا بآيات الله ، ولم يتبعوا هدايته فى أمسهم ويومهم . أو يكذبون بها فى غدهم) .

وبانضمام هداية الله إلى عقل الإنسان يتكون صمام الأمان لدى الإنسان المؤمن بهذه الهداية ، ضد الاستكانة والخضوع إلى الشهوات خضوعاً تاماً. وبذلك يضمن أن يحقق الروحية الإنسانية فى ذاته .

* * *

* والروحية الإنسانية — لأنها جوهر الانسان — قدر مشترك بين الناس جميعاً . ومظاهرها أو خصائصها إذن : تتصل بهم جميعاً كذلك . وما يعود على ذات الفرد وحدها من منفعة أو مصلحة لا يعد من هذه المظاهر أو الخصائص . إذ ما يعود على ذات الفرد وحدها بالأحرى يمثل حاجة البدن الخاص .. أو يمثل الأنانية .

والروحية الإنسانية هى مقابل الأنانية . والسلوك الروحى للانسان هو ما يضاد السلوك الأنانى فيه . والسلوك الروحى يساوى السلوك الجماعى ، بينما السلوك الأنانى يساوى السلوك الشهوانى .

والعدل هو أدنى الدرجات فى السلوك الروحى ، .بينما أعلاه يتمثل فى الإحسان .. وهو الإعطاء المادى أو المعنوى للآخرين فى غير مقابل .

وإشباع غريزة حب البقاء من سعى يجنب الآخرين الإيذاء والاضرار .. هو أخف الدرجات فى السلوك الأنانى ، بينما الاعتداء على حرمات الآخرين من أجل تحقيق شهوات الغريزة يمثل أغلظها فى هذا السلوك .

والإطار الذى يرسم حدود الروحية الإنسانية فى أدنى درجاتها يصوره **قول الله تعالى :**

« قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم :

١ — أن لا تشركوا به شيئاً ،

٢ — وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم ،

٣ — ولا تقربوا الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، حتى يبلغ أشده ،

٤ — وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ،

٥ — وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون .

وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١) .

... فقد تناولت وصية الله هنا دوائر :

الاعتقاد ،

والأسرة ،

والحرمات بين الناس ،

والعدل ، والعهد .

وهى كلها ترتبط بصلة الأفراد بعضهم ببعض ، عدا ما يتعلق بالاعتقاد فهو خاص بكل فرد على حدة . لأن سلامة الاعتقاد التى تتمثل فى عدم الشرك بالله : « **أن لا تشركوا به شيئاً** » .. هى البداية لقيام الروحية الإنسانية وتطورها فى الإنسان . فالشرك فى الاعتقاد رمز الأنانية . لأنه

---

(١) الأنعام : ١٥١ — ١٥٣ .

تحول من معبود إلى آخر ، أو اتجاه إلى عدد من المعبودات فى وقت واحد. والباعث على التحول أو الجمع بين معبودات عدة ، هو المصلحة الذاتية وتحصيلها . بينما الوقوف عند معبود واحد هو التزام بما له من رسالة تتضمن مبادىء السلوك والمعاملة للعابدين جميعاً والمؤمنين به . وهو التزام يتضمن أداء واجب للغير ، والحصول على حق للذات .

وفى **دائرة الأسرة** يوصى القرآن هنا :

أولا : برعاية الوالدين مراعاة تعبر عن الإحسان إليهما : « **وبالوالدين إحسانا** » .

وثانياً : بالكف عن قتل الأولاد ، تخلصاً من أعباء تنشئتهم وتربيتهم : « **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** » .

وفى **دائرة الحرمات** بين الناس يوصى :

أولا : برعاية حرمة الأعراض بتجنب الزنا على الأخص وعدم اقترافه : « **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** » .

وثانياً : وبرعاية حرمة النفوس بعدم الاعتداء عليها بالقتل غير المشروع : « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** » .

وثالثاً : برعاية حرمة الضعفاء فى أموالهم بعدم الاقتراب منها إلا فيما ينميها ويحسن إليها : «**ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن** » .

وفى **دائرة العدل** يوصى :

أولا : برعاية العدل فى المعاملات المالية : « **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها** » .

وثانياً : برعاية العدل فى الشهادة ، والعدل فى القول عند الرواية والنقل : «**وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى** » .

وفى **دائرة العهود** يوصى :

بالوفاء بالعهد ، إذا لم ينطو العهد على إيذاء أحد ، وهو عهد الله : « **وبعهد الله أوفوا** » .

وسمى القرآن هذه الوصايا التى تحدد إطار الروحية الإنسانية .. بصراط الله المستقيم : « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه** » . . وجعله الضمان لعدم الزلل والوقوع فى الأخطاء : «**ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** » إذ ما عدا هذا الصراط المستقيم من سبل أخرى ، هى : سبل الأنانية . وسبل الأنانية لا توصل قطعاً إلا إلى الأخطاء والمخاطر . . أخطاء الطريق المنحرف ، ومخاطر الاصدام والتقاتل .

أما أعلى درجات الروحية فيتمثل فى الجهاد فى سبيل الله بالنفس أو بالمال ، أو بهما معاً ، كما يتمثل فى الإحسان فى صوره العديدة . وقوله تعالى فى سورة النحل :

١ – « **إن الله يأمر بالعدل ،**

٢ – **والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ،**

٣ – **وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون .**

٤ – **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون** ».(١)

... يجمع كلى مبادىء الروحية الإنسانية ومستوياتها المتفاوتة ، فى صلة الإنسان بالانسان .

★★★

... **والمادية :**

لا تعنى الاستمتاع بالمتع المادية . فذلك أمر لا تختلف فيه الروحية الإنسانية . والاستمتاع بمتع الحياة المادية إذن أمر مقرر وغير منكر : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة** » (٢) . بل هو أمر

---

(١) النحل : ٩٠ – ٩١

(٢) الأعراف : ٣٢

مطلوب فى مبادىء الروحية ويسعى إليه الإنسان : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا » (١) .. « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (٢).

وإنما المادية هى التركيز فى طلب المتع المادية وحدها ، والبقاء فيها ، والإيمان بها دون ما سواها من قيم عليا .. هى الوقوف بسعى الإنسان عند حد الذات ومطالبها الذاتية مما تشتهيه من متعة النفس والفرج ، أو متعة الجاه والسلطة ، ولا تتعدى ما تشتهيه إلى ما يعود على الآخرين بالمصلحة والنفع العام .. هى النظرة إلى محيط الذات على أن ما بهذا المحيط من قيم يصور القيم النهائية التى يجب أن ينتهى عندها نشاط الانسان فى حياته ، وإنكار ما عداها من قيم أخرى هى قيم تتجاوز حدود الذات إلى ذوات أخرى ، وهى تلك التى توصف بالقيم العليا : كالتعاون ، والمشاركة فى السراء والضراء ، والتواد ، ومحبة الغير كمحبة النفس سواء ، باعتبار أن هذه القيم العليا تشغل فقط الخيال دون الواقع ، وباعتبار أن الإيمان بها يفوت على المؤمن مصالحه الخاصة . ولذا — فى نظرة المادية — يدخل الإيمان بما يسمى بالقيم العليا .. دائرة الخداع • أو الوهم .

والمادى هو الذى يستنفد نشاطه إذن فى الاستمتاع بمتع الحياة المادية ويستغرق فيها • دون أن يعرف حداً لمتعته ، ويستوى عندئذ فى انطلاقه فيها مع الحيوان . « والذين كفروا يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم »(٣) .. أى أن الذين كفروا يستهدفون فى حياتهم فى الدنيا المتعة وحدها • وينطلقون فيما تشتهيه النفس من أكل وشرب على نحو ما تصنع البهائم . والذين كفروا هم أولئكم الذين لايؤمنون بالله ولا بحياة أخروية وراء هذه الحياة الدنيوية .. هم الماديون الذين يستحبون الحياة الدنيا

---

(١) الأعراف : ٣١ — (٢) الجمعة : ١٠

(٣) محمد : ١٢

على الآخرة . ويصدون عن دين الله بكفرهم وعنادهم . ويحاولون طمسه وتشويهه : « وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا »(١) .

وكما يعرف الماديون بهذا الاتجاه : وهو العداء للروحية ومخاصمتها . . يعرفون كذلك بالعزوف عن السماع لذكر الله : وباللغو فى كتابة ، «وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة » (٢) . . « وقال الذين كفروا : لاتسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون » (٣) .

والماديون : أنانيون . أى أنهم يعيشون فى دائرة « الأنانية »ولايخرجون منها بنشاطهم إلى واقع الآخرين معهم . والماديون — أو الأنانيون — بعيدون عن الميل الجماعى أو الروح الجماعية . لأن الميل الذاتى هو المسيطر عليهم آنئذ . وإن هم ادعوا بعد ذلك : أنهم اشتراكيون ، أى أصحاب نزعة اجتماعية .. فدعوتهم هذه تتنافر مع إيمانهم بالمادية وبسلوكهم الأنانى . إلا إذا جردت اشتراكيتهم من كل معنى إنسانى ومن كل قيمة إنسانيةعامة، وقصد بها المشاركة المادية فى الملكية أو فى الانتفاع بها .

ولكن عندئذ ستكون الاشتراكية — بمعنى المشاركة المادية فىالملكيةأو فى الانتفاع بها — طريقاً للتنازع أو للتواكل .. ستكون طريقاً للتنازع لأنها توجة أهداف الأفراد المتشاركين نحو الغاية المادية وحدها ، ونحو قصر الاستمتاع بنتائج النشاط الإنسانى على المتع المادية دون ما سواها . وهنا تختفى معانى: الأخوة ، والتسامح ، والتعاون .. وما يشبه ذلك مما يدخل فى دائرة العلاقاتالإنسانية ، وتتوارد بدلا منها دوافع :النفاق، والانتهازية، والمنفعية ، كما يقوى الحقد وتلعب أساليبه الخفية فى الفرقة والخصومة

---

(١) ابراهيم : ٢ — ٣
(٢) الزمر : ٤٥
(٣) فصلت : ٢٦

النفسية المستترة ، أو التى قد تبرز عندما يخف أمر الضوابط التى تقنن علاقة الأفراد كأبدان : بعضها ببعض . كما ستكون طريقاً إلى التواكل : فنثبط الهمم نحو السعى فى العمل ، طالما يحصل الأفراد — بحكم هذه المشاركة المادية — على الحاجة الضرورية لمعيشة الانسان ، وطالما أبعد الاقتناء الخاص عن مجال الأهداف التى يمكن أن تتحقق فى المجتمع الاشتراكى بهذا المعنى .

* * *

... والمادة :

التى هى مصدر المتعة الحسية للبدن — طالما الروحية الإنسانية لاتمنع الاستمتاع بها — ليست شراً ، وليست بالأمر البخس الذى يجب تجنبه . وإذا طلبت هذه الروحية الاستمتاع بالمادة : « وكلوا واشربوا » .. « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة** »(١) وطلبت أيضا استخدام المادة فى الزينة . « **يابنى آدم : خذوا زينتكم عند كل مسجد** » وطلبت السعى إليها على نحو السعى إلى أداء العبادة : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** » (٢) .. إذا طلبت الروحية كل هذا كأوجه للانتفاع بالمادة ، فإن ذلك يؤكد طهارتها وبالتالى يؤكد حلها ، كما يدفع ذلك التصور المنحرف الذى لازم « المادة » قبل الاسلام تحت تأثير الثقافة الفلسفية القديمة ، وهو : أنها شر ورجس يجب الابتعاد عنه . وبناء على هذا التصور المنحرف كان طلب « العزلة » والابتعاد عن ماديات الحياة كأساس « للنقاء » و « التطهر » ، كما كانت الرهبنة بين رجال الدين كأمارة على الانصراف عن الاستمتاع بالدنيا .

والماديون فى تبرير اتجاههم المادى إذ يوجهون النقد للروحية فى نظرتها إلى المادة على أنها رجس يجب تجنبه .. فإنهم يوجهونه إلى روحية المسيحية التى تأثرت بأفلوطين المصرى ، وليس إلى تلك الروحية الإنسانية التى يدعو إليها الاسلام كآخر صورة للرسالة الإلهية .

---

(١) الروم : ٢١ (٢) الجمعة : ١٠

والمادية الغربية التى تمعن فى تأكيد المادة وحدها وتنكر ما عدا المحسوس والمشاهد من القيم والمثل العليا ، كما تنكر الله والدين • • كانت وليدة المعارضة لتلك الروحية التى دعت إلى اعتزال الحياة المادية هرباً من شريتها ، وهى روحية المسيحية الأفلوطينية • ولو ورث الفكر الأوروبى –بعد الوثنية– فى تقاليده : الروحية الاسلامية ، أى الروحية التى جاءت بها رسالة الله إلى رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ، لما ظهر فى اتجاهات هذا الفكر ذلك الشذوذ ، ولا هذه المبالغة فى الركون إلى المادة وحدها : فى السعى إليها واستهدافها •

وهكذا : الروحية ليست عزلة عن متع الحياة وليست انفصالا عنها • وإنما هى استمتاع بها فى غير إسراف : « **وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين** »(١) • إنها إنسانية •• إنها مشاركة فاضلة جماعية •

وهكذا : المادية ليست استمتاعاً بالمادة فقط ، بل هى تركيز فى المتع المادية ، ومسايرة للأنانية ، وبعد عن الروح الجماعية ، وإنكار للقيم الإنسانية ، ولوجود الله ودينه •

---

(١) الأعراف : ٣١

الفصل الثانى

مجتمع الله .. ومجتمع الشيطان

في مجال التصور والنظر :

* اعتماد الانسان على الله بادىء ذى بدء يقصى الشيطان بعيداً عن مجال : عمله ، واعتقاده ، وتفكيره .. أى يقصى الانحراف فى هذه الدوائر الثلاث .

واستناد الانسان إلى الشيطان بادىء ذى بدء يبعد الإيمان بالله فى مجال : عمله ، واعتقاده ، وتفكيره ..أى يترك هذه الدوائر الثلاث للهوى والغرض ، والشهوة : فلا يلتزم الانسان بسلوك معين ، وإنما يتبع ما يمكنه من تحقيق هواه وغرضه ، وشهوته . ولا يلتزم فى اعتقاده بمعبود واحد ، وإنما ينتقل باعتقاده من معبود إلى آخر ، حسب مصلحته وشهوته الخاصة . ولايلتزم فى تفكيره بمنطق واحد ، وإنما يطبع منطقه للهوى والغرض والشهوة .

والله . . والشيطان إذن طرفا نقيض ، الله عنوان الهداية والاستقامة : فى السلوك ، والاعتقاد ، والتفكير ، والشيطان عنوان الضلال والانحراف فيها.

لذا ابتدأت رسالة الله للانسان بتحذيره من اتباع الشيطان وسلوك طريقه ، الذى هو طريق الضلال . يقول الله تعالى : « **يا بنى آدم لايفتننكم الشيطان** (أى لايضلنكم) **كما أخرج أبويكم من الجنة** (وهما آدم وحواء إذ وسوس لهما حتى عصيا أمر الله ، فأخرجا من الجنة عقاباً لهما ، وهبطا منها إلى الأرض) **ينزع عنهما لباسهما** (ولباس الإنسان هو عقله .إذ وظيفة العقل شأناً ، أن يحول بين الانسان والاندفاع فى اتجاه الغرائز إلى مزالق الخطأ والانحراف. وبذلك يستر ما فيه من نقص ، وهو نقص الخطأ والانحراف بسبب اندفاع غرائزه فى اتجاهها الفطرى . والعقل فى هذا يشبه اللباس

فى ستره العيوب والنقائص فى البدن) **ليريهما سوآتهما** (أى ليريهما ما بهما من نقص محتمل ، بسبب اندفاع الغرائز فى طريقها ، إذا لم يحكمها العقل . وذلك عن طريق إغرائه وغوايته ، وبذلك يعوق العقل عن أن يمارس وظيفته المرتقبة) **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** (أى أن الشيطان لأنه يعيش مع الانسان وفى نفسه يرى الانسان ، ولكن الانسان لا يحس من الشيطان إلا بوسوسته فى نفسه وإغرائه وفتنته بمتع الدنيا ولذا لايراه) **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** » (أى أصدقاء أولئكم الذين يكفرون بهداية الله)(١) . . كما كررت رسالة الله هذا التحذير فى صورة أخرى – أكثر وضوحاً – إذ جاء قول تعالى : « **ألم أعهد إليكم يا بنى آدم** (أى ألم أوصكم) : **أن لاتعبدوا الشيطان** (أى أن لا تطيعوه طاعة العابد فى اندفاع وفى غير تمهل) **إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم**» (٢) .

والله جل شأنه ولى المؤمنين به : « **الله ولى الذين آمنوا: يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت** (الشيطان) **يخرجونهم من النور الى الظلمات**» (٣) .. فولاية الله للمؤمنين هى عون لهم تعينهم على الخروج من ظلمات الشهوات والأهواء التى مصدرها غرائز الانسان ، إلى نور العقل فيبصرون عن طريقه هداية الله . أما ولاية الشيطان فتطمس نور العقل ، فيمن اتبعوه ، وبذا يستقرون فى ظلمات الأهواء والشهوات ، ولايرون هداية الله فيكفرون بها .

★★★

فى مجال الواقع للمجتمعات البشرية :

وعن طريق الانتقال من تصور الله جل جلاله فى هدايته . . وتصور الشيطان فى وسوسته وفتنته . . إلى أولياء الله . . وأولياء الشيطان فى واقع أمرهم ، وهم جميعاً من البشر : نقف على معالم الطريق التى ترسمها الهداية الإلهية ، وكذا على معالم الطريق الآخر التى توحى بها وسوسة الشيطان لأتباعه :

(١) الأعراف : ٢٧
(٢) يس : ٦٠ – ٦١
(٣) البقرة : ٢٥٧

* فمعالم الطريق للمؤمنين فى جانب الاعتقاد ما تحدده مثل هذه الآية :
« **يا أيها الذين آمنوا : آمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله** (وهو القرآن) **والكتاب الذى أنزل من قبل** (أى على رسول سبق وبالأخص : التوراة . . والإنجيل) **ومن يكفر بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيداً** » (١) .

والمؤمن بهذا كله إنسان لا يخاصم ولا يجادل فى الحق . إنه إنسان مسلم ومسالم . قد آمن بالله واليوم الآخر ، كما آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام وبجميع الرسل السابقين عليه ، وبالكتب الذى نزلت عليهم جميعاً. وهو الآن يبغى بناء ، لاهدماً ، ويقصد إلى الاستقامة وليس إلى الالتواء، وأن ظاهره يعبر عن باطنه . يفتح قلبه لجميع الناس ويرحب بدخولهم الإيمان معه سوياً : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألانعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** » (٢) .

* ومعالم الطريق للمؤمنين فى جانب السلوك هى على نحو ما يشير إليه القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « **إنما وليكم الله ، ورسوله ، والذين آمنوا : الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم، الغالبون** » (٣) فاقامة الصلاة عنوان الخشية من الله والرجوع إليه فى كل وقت . وإيتاء الزكاة دليل اتباع هداية الله ، والبعد عن وسوسة الشيطان . إذ إخراج المال لأصحاب الحاجة إليه فى غير مقابل سمة من لم يتأثر بأهوائه وشهواته.. سمة من حكم عقله فى تصرفاته ، ولم يترك الأمر لغرائز نفسه تندفع فى طريقها إلى غير حد . والصلاة والزكاة عبادتان عمليتان ، هما أثر للايمان بالله ، ولولايته على من يباشرها .

---

(١) النساء : ١٣٦
(٢) آل عمران : ٦٤
(٣) المائدة : ٥٥ — ٥٦

... وكذلك على نحو ما يشير إليه قوله تعالى : « **ولا يأتل** (أى لا يقسم) **أولوا الفضل منكم والسعة : أن يؤتوا أولى القربى ، والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم** » (١) .. فالآية هنا تنصح أصحاب السعة فى المال أن لا يكفوا عن الإعطاء لأصحاب الحاجة من الأقربين ، والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله ، بسبب غضبهم منهم لأمر ما . بل يجب أن يعفوا ويصفحوا عنهم ، ويستمروا فى مساعدتهم . فعدم تأثر المعطى من ماله فى عطائه لصاحب الحاجة إليه ، بسبب إساءة إصابته منه .. أمارة على أن المعطى قد ارتفع فوق الشهوات والأهواء ولم يخضع لها ، وبالتالى : أمارة على أنه حكم العقل واتبع هداية الله ، وتجنب غواية الشيطان فى تصرفه .

* أما إطار الطريق للذين يتبعون الشيطان فى جانب الاعتقاد فهو السخرية بدين الله والتحدث عنه بأنه سحر ، أو خداع ، أو كذب ، أو تخلف ورجعية ، وكذلك الخوض فيه لعباً بتأويله تأويلا عابثاً أو محرفاً . وقد كان من مهمة الشيطان التى أخذها على عاتقه محاولته التى لا ييأس فيها : انتهاك حرمة الدين فى نفوس أتباعه ، كما تذكر هذه الآية الكريمة : « **قال** (أى إبليس الشيطان) **فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم** (وهو دين الحق) **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين** » (٢) .

* وفى جانب السلوك العملى هو سعيهم المتواصل الذى لا يكل أبداً فى سبيل الشهوات ، وقلقهم المستمر ، إما خوفاً من عدم تحقق ما يسعون فى سبيله ، أو طمعاً فى زيادة ما حصلوه فى سعيهم : « **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها** (أى اقصص على الماديين الكافرين خبر من عرضت عليه هداية الله فأبى قبولها) **فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين** (أى فكان مآل أمره :

---

(١) النور : ٢٢

(٢) الأعراف : ١٦ — ١٧

أن لحق به الشيطان فوسوس له فأغواه وأضله . وبذلك انحرف هذا الانسان عن الطريق السوى فى الحياة). **ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه** (أى وكان يمكن أن يوفق الله هذا الإنسان للهداية ، ويسموا به فوق الدنايا والانحطاط ، لو أخذ هو الطريق الصحيح إليها ، فحكم عقله فيما عرض عليه من آيات الله . ولكنه آثر التدلى والاستقرار فى المكان الأدنى وهو محيط الشهوات والأهواء) **فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث** (أى وأصبح عندئذ فى رسوبه فى محيط الشهوات والأهواء واستغراقه فيها قلقاً ، سواء فى حال الاستجابة لها فهو شره لايشبع ، أوفى حال عدم تحقيق الأهداف فهو مأزوم لم تنفرج أزمته . وحاله فى الأمرين كحال الكلب : يلهث دائماً تعبيراً عن قلقه المستمر .. يلهث إن اضطهد ، ويلهث كذلك إن ترك من غير اضطهاد ، وخلى وشأن نفسه) **ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا»** (أى وهذا الشأن من القلق المستمر بسبب الاستغراق [فى] الشهوات وفى اتباع الأهواء لمن ضل عن هداية الله .. هو شأن أولئكم جميعاً الذين يكفرون بالله ويكذبون بما جاءت به الرسل من هداية . كان ذلك شأنهم فى الماضى ، وهو شأنهم اليوم فى حاضرهم ، وسيكون شأنهم غداً) (١) .

والإسراع إذن إلى تحصيل شهوات النفس والاندفاع فى اتباع هواها فى غير تريث ، وقبول المذلة فى طريق ذلك ، والانتقال بالخضوع أو العبادة من موجود إلى آخر ومن شخص إلى آخر طمعاً فى عون على ما تبغيه النفس .. هو من المعالم الرئيسية للطريق العملى للشيطان .

وتناول الخمر واقتراف الميسر يقعان فى طريق الشيطان أيضاً : **« يا أيها الذين آمنوا : إنما الخمر ، والميسر ، والأنصاب والأزلام ، رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ » (٢)**

---

(١) الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦ (٢) المائدة : ٩٠ – ٩١

واقتراف الفحشاء وهى جريمة الزنا ، واقتراف المنكر وهو جريمة النفس ، والمال : من أمارات السلوك العملى للنفوس المريضة التى تتبع وسوسة الشيطان : « **يا أيها الذين آمنوا : لاتتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم** » (١) .

كل هذه ظواهر تشير إلى السلوك العملى الذى يسلكه من هو فى دائرة الشيطان .

***

* وإذا كان إيمان أولياء الله يستتبع صفاء نواياهم ، واستعدادهم للتواد مع غيرهم ، وحدبهم على أن يشاركوهم فى إيمانهم بمعبود واحد ، لاإله غيره ، وإذا كان هذا الإيمان يستتبع كذلك تفكيرهم فى السلام والمسالمة ، وليس فى البغى والاعتداء .. فإن تبعية أولياء الشيطان لوسوسته تستتبع : الحقد والبغضاء لأولياء الله : « **يا أيها الذين آمنوا : لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا** (أى فساداً) **ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور** » (٢) .

•• كما تستتبع التبعية للشيطان تدبير السوء بالأيدى والألسن معاً لأولياء الله . . بالاعتداء وباشاعة الكذب والاختلاق : « **يأيها الذين آمنوا : لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم**

---

(١) النور : ٢١ . (٢) آل عمران : ١١٨ – ١١٩

بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون »(١) .

وهكذا :

الإيمان بدين الله .. خصيصة الاعتقاد لدى أولياء الله .

بينما الاستهزاء بدين الله .. خصيصة الاعتقاد لدى أولياء الشيطان .

... والانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبغى ، والسمو فوق شهوات النفس: أمارة السلوك العملى لأولياء الله .

بينما اقتراف الخمر والميسر ، ومباشرة الفحشاء والمنكر ، واتباع الشهوة والهوى : أمارة السلوك العملى لأولياء الشيطان .

... والتفكير فى السلام والمسالمة ، والاستعداد لقبول الآخرين قبولا حسناً فى مجتمعهم .. علامة التفكير وما تنطوى عليه النفس لدى أولياء الله .

بينما انطواء النفس على البغض والكراهية ، والتفكير فى البغى والاعتداء ، وإشاعة السوء ضد أولياء الله .. علامة التفكير لدى اتباع الشيطان .

مجتمعان متناقضان : اعتقاداً ، وسلوكا ، وتفكيرا :

.. مجتمع يمد يده للمصافحة ، وينطوى قلبه على الصفاء ، ويشغل تفكيره السلام والمسالمة ،

ومجتمع آخر يقبض يده عن المصافحة إلا نفاقا : « **وإذا لقوكم قالوا: آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** » ولا ينطوى قلبه إلا على الغل والكراهية ، ولا يفكر إلا فى الاعتداء : « **وما تخفى صدورهم أكبر** » .

---

(١) الممتحنة : ١ - ٢

.. مجتمع يؤمن بالقيم العليا وبالإنسانية : « **إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى**»(١).

ومجتمع آخر يكفر بالقيم العليا وبالإنسانية ،ويؤمن بالشهوة كغاية ، وبالهوى كوسيلة .. يؤمن بالمادية ، ويكفر بالروحية .

ولهذا التناقض كان موقف مجتمع الشيطان من مجتمع أولياء الله هو عدم مودة الخير لهم على نحو ما تذكره هذه الآية : « **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ، ولا المشركين : أن ينزل عليكم خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** »(٢) .

.. وكان موقف مجتمع أولياء الله من مجتمع الشيطان هو الحيطة فى الإقبال على أفراده والمودة لهم ، كما يحدد هذا الموقف قول الله سبحانه : « **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم . أو إخوانهم . أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** »(٣) .

★★★

فى مجال السياسة بين الشعوب والأمم :

* وما يعبر عنه القرآن أو دين الله .. « بأولياء الله » تعبر عنه بعض الاتجاهات السياسية المعاصرة « بالرجعيين » . وما يعبر عنه «بأولياء الشيطان» تعبر عنه هذه الاتجاهات « بالتقدميين » . إذ الرجعية فى مفهوم هذا البعض من أصحاب الاتجاهات السياسية المعاصرة هى : تبنى الدين والخضوع له ، والتمسك بمبادئه فى السلوك ، والاعتقاد ، والتفكير ،

بينما التقدمية هى التخلص من الدين ومن قيمه العليا ، بالإضافة إلى التخلص من العادات والتقاليد ، والثقافة الموروثة لأى مجتمع . . هى

---

(١) النحل : ٩٠ (٢) البقرة : ١٠٥
(٣) المجادلة : ٢٢

التحلل من كل المقاييس الأخلاقية ومعايير المنطق السابقة ، والاندفاع نحو قبول أيديولوجية تأخذ مكان العقيدة وكل ما هو موروث حسب العرف أو التقاليد ، وهى أيديولوجية « الغوغائية » التى تقوم على ما يسمى بالصراع الطبقى وديكتاتورية الطبقة العاملة .

والثورة الثقافية التى حدثت فى الصين الشيوعية فى الأعوام الأخيرة كانت ثورة للتخلص من جميع التقاليد والأعراف والثقافات الموروثة . . كانت لهدم الكنائس ، والمساجد ، وبيوت العبادة كلها . . كانت لإحراق الكتب والمراجع السابقة على عهد المادية الإلحادية التى سيطرت هناك منذ سنة ١٩٤٩ .. كانت لتحويل الناس عن الماضى بجميع ما فيه ، ووضعه صفاً واحداً أمام أيديولوجية : « ماو » ، التى ليست قبلها ولا بعدها أيديولوجية أخرى !! .

والرجعية والتقدمية مفهومان جديدان إذن بين مفاهيم السياسة المعاصرة ، حلا مكان دين الله من جانب ، وعدم الإيمان بالله أو الإلحاد أو تحدى دين الله من جانب آخر .

ومجتمع الرجعيين هو مجتمع أولياء الله والمؤمنين بالله . ومجتمع التقدميين هم مجتمع الملحدين غير المؤمنين ، والمتحدين لدين الله والصادين عن سبيله .. هو مجتمع التقدميين و « البلشفيين » والثوريين والانقلابيين فى تحديد الفكر الفلسفى الماركسى .

و « الثقة بالله » تناقض « الثقة بالبلشفية » حتما . فإما ثقة بالله ، أو ثقة بالبلشفية . ولا تجتمع الثقة بهما معاً فى وقت واحد ، لأن الثقة بهما فى وقت واحد تساوى اجتماع الإيمان وعدم الإيمان بالله ، فى وقت واحد ، فى شخص واحد . إذ الثقة بالله توحى بعدم الثقة بالإلحاد وتحدى دين الله : « **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** » . والثقة بالملحدين — أو البلشفيين فى وقتنا الحاضر — توحى

بالاستهزاء والسخرية بدين الله . فالملحدون أو البلشفيون يرون فى دين الله تخلفاً وخرافة : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، والكفار .. أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** » (١)

وقد طغى التسلط بالحكم فى بعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة على المفاهيم الاسلامية فأخلاها من مضمونها وجعلها شعارات : تخدع ولا تطفىء ظمأ ، ثم ربط بينها وبين مفاهيم أخرى فى أيديولوجيات أجنبية ، وجعل فى العلاقات بين الطرفين تواداً وولاء ، رغم التناقض فى واقع الأمر . فأصبح البعض – تزلفاً للحكم – ينعت الدين بالتقدمية ، وبالاشتراكية ، وبالثورية ... على حين : أن التقدمية – كما أشرنا – هى تخلص من الماضى وتراثه ، وثقافته ، ودينه ، وعرفه وتقاليده .

وعلى حين : أن الاشتراكية العلمية – كما تسمى نفسها – هى تعبير مرادف للتقدمية بمعناها السابق ، ينتهى أمرها فى الجانب الاقتصادى .. إلى إلغاء الملكية الخاصة ، وتحويل جميع مصادر الإنتاج إلى ملكية الدولة يباشرها أفراد آخرون هم أعضاء الحزب السياسى الوحيد ، بدلا من الأفراد الذين كانوا يملكونها .

وعلى حين أن الثورية هى انقضاض على الماضى فى غير هوادة ، وتخريب لجميع قيمه العليا – وفى مقدمتها الدين – فلا تبقى ولا تذر فيها قيمة واحدة . وبذلك يتحول المجتمع إلى مجتمع حيوانى ليست لأفراده حرية ، وليست لهم استطاعة على ملء بطونهم ، وليس لديهم حد لانطلاق الأباحية فيما بينهم .

---

(١) المائدة : ٥٧ – ٥٨

.. كما أصبحت هنا أواصر قربى بين أولياء الله وأولياء الشيطان ، رغم العداء الواضح بينهما .

وأصبحت هنا مودة من المسلمين للبلشفيين ، رغم استهزاء هؤلاء بالدين أولئكم وسخريتهم من عبادتهم وخبث نواياهم نحوهم : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً . ودوا ما عنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم . وتؤمنون بالكتاب كله . وإذا لقوكم قالوا آمنا . وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** » (١) .

وأصبحت عواصم البلشفية يحج إليها من المسلمين مرددين فيها نداءات التلبية : للتقدمية ، والاشتراكية ، والثورية ، على نحو ما يصنع حجاج بيت الله الحرام مرددين نداء التلبية : لله جل جلاله .

وأصبحت الثقة بالله تقرن بالثقة بمن يحادون الله ورسوله ، فى كلام يتلى على الناس ممن شأنهم أن يكونوا موضع ثقة لهم .

إن الاسلام دين الله : لايعرف شركا ولا وثنية فى أصنام مكة وأصنام عهود البشرية كلها ، بعد مكة وقبل مكة . . لا يعرف شركا فى حجر ولا نار ، ولا بقر ، ولا فى علم ، وحزب ، ولا فى دولة ، وإنسانية . إنه يعرف معبوداً واحداً : لا إله غيره هو الله تعالى . وسبيل الاسلام سبيل واحدة ، بينما سبيل الشيطان كثيرة : « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولاتتبعو االسبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** » (٢) . ومن يؤمن بالله ويبقى على

---

(١) آل عمران : ١١٨ — ١١٩ (٢) الأنعام : ١٥٣

إيمانه ينصره الله حتما : « **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** » (١) ومن يؤمن بالله ثم يخذله بالكفر به ، وينتقل إلى ولاية الشيطان . . يخذله الله ، ويخزيه في دنياه قبل آخرته : « **يا أيها الذين آمنوا : من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه . أذلة على المؤمنين . أعزة على الكافرين . يجاهدون في سبيل الله . ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** » (٢) .

---

(١) الروم : ٤٧

(٢) المائدة : ٥٤

الفصل الثالث

الفكر المادى فى خياله ، والدين فى واقعيته

يقوم الفكر المادى على تقييم المادة وحدها فى وجود الانسان . . يقوم على الاعتراف بأن الموجود هو ما كان مادة تحس .. وتختبر .. وتلاحظ ، فى كل مالها من خصائص .

وينكر هذا الفكر المادى من أجل ذلك : الله . لأنه لا يدرك بالحس . وينكر أيضاً وجود النفس والعقل فى الانسان على اعتبار أن لكل منهما وجودا مستقلا ، ويراهما ظاهرتين من ظواهر الجسم ، وأمرين ملحقين به على نحو ما .

ولأن الدين يتحدث عن الله ، والله غير محس ، وعن خصيصة الانسان من نفس أو روح ، أو عقل كحقيقة فيه لا تشاهد . . ينكر هذا الفكر المادى أيضاً : الدين ، ويصفه بالخرافة أو بالخداع ، والبعد عن الواقع .

وعلى أساس من هذا الفكر المادى نشأ نوع من الفكر الاجتماعى — هو الفكر المادى التاريخى — يقيم الاقتصاد وحده كعامل رئيسى فى حياة الانسان ، ويرى أن المال هو الأمر الذى لا بديل عنه فى تحديد اتجاهات التفكير فى الانسان ، وتحديد نوع مجتمعه الذى يعيش فيه فالاقتصاد هو صاحب الخالقية ، ورب الانسان وخالقه . وينصح — بناء على هذه النظرة المادية — بعدم الملكية الخاصة فى المجتمع ، وبإلغائها إن كانت قائمة ، وبجعل الاقتصاد ملكا شائعاً للمجتمع كله . ويتصور تطور المجتمع ذى الملكية العامة : أن تطوره يتدرج فى مرحلتين :

الأولى : مرحلة ما يسمى بالاشتراكية ، وهى : أن يأخذ الفرد من منفعة المال بقدر ما ينتج ، أو بقدر ما يقوم به من عمل . فإن أنتج كثيراً أخذ كثيراً ، وإن أنتج قليلا أخذ قليلا .

والثانية : مرحلة ما يسمى بالشيوعية ، وهى أن يأخذ الفرد من منفعة المال بقدر حاجته فى يومه ، ويعطى من الإنتاج بقدر ما يستطيع حسب طاقته . وهذا معناه : أنه قد يأخذ أقل مما يعطى ، ويعطى أكثر مما يأخذ . أى أنه يقدم من طاقته ومن مجهوده البشرى للمجتمع أكثر مما يأخذ منه لتغطية حاجته .

والمرحلة الأولى من هاتين المرحلتين وإن كانت لا تتم فى التطبيق فى المجتمعات الاشتراكية حسب المعادلة القائمة عليها ، وهى أن الأجر على قدر العمل ، إلا أنها من الوجهة النظرية تتسم بطابع العدل . وهى لا تتم فى التطبيق الواقعى ، لأن عناصر أخرى ، عدا القدرة على الانتاج ، تدخل فى تحديد الأجر ، وهى التبعية للحزب السياسى أو الموالاة بصفة عامة لنظام الحكم . إذ فى التطبيق الاشتراكى يتخذ هذا النظام من « الملكية العامة » تهديداً بالحرمان والتجويع لمن لا يسير فى الخط المرسوم « لسيادة الحزب» وعن طريق الملكية العامة وحدها — وعدم السماح بملكية خاصة فى المجتمع الاشتراكى — يخاطب الحزب : البطون والمعدات لدى الأفراد ، دون العقول والقلوب فيها ، فهو لا يؤمن بها لأنها ليست مادة تحس . وقضية التهديد بالحرمان تستتبع الإغداق أو « المحسوبية » لمن يظهرون الولاء للحزب وسيادته ، عند تحديد الأجور .

أما المرحلة الثانية ، وهى مرحلة : الأخذ من المال بقدر الحاجة ، والإعطاء للمجتمع حسب الطاقة والاستطاعة البشرية فى العمل والإنتاج . . فالسؤال هو : كيف يتحقق من إنسان مادى يؤمن بالمادة وبالمنفعة المادية وحدها أن يعطى من نفسه لغيره — لمجتمع أو لأفراد — أكثر مما يأخذ منه؟ إنه يستحيل على مادى أن يعطى ولا يأخذ شيئاً ، أو يأخذ أقل مما أعطى . إنه إما أن يأخذ أكثر مما يعطى كما هو وضع المادى الرأسمالى، وإما أن يأخذ بقدر ما يعطى ، كما هو وضع الاشتراكى فى التصور النظرى . وإلا لم يكن مادياً يؤمن بالمادية وحدها .

إن من يؤمن بالمادة وحدها وبالمنفعة المادية دون ما سواها لا يؤمن بالقيم العليا التي تكون المستوى الإنساني في سموه . . لا يؤمن بالأخوة ، ولا بالتعاون على البر والتقوى ، ولا بالرحمة والعطف ، ولا بالتواد والتعاطف ، . . لا يؤمن بالترابط النفسي أو الروحي . إنه يؤمن فحسب « بالتلاحم » بين الأبدان ، و « بالصراع » بين الطبقات و « بالثورة » أو بسفك الدماء لقلب الأوضاع .

إن من يؤمن بالمادة وحدها وبالمنفعة المادية دون ما سواها يؤمن بالطمع وبالجشع ، وبالأنانية ويسلك سبل المنافقين ، والانتهازيين ، والمشركين . لا يدفعه إلى العمل إلا مقابل مادى أو « إرهاب مادى » ، ولا يشجعه على الزيادة فيه إلا « حافز » مادى ، ولا يضمن إتقانه لما يعمل إلا إغراء مادى ظاهر له . إنه يتواكل فور أن يخف المقابل المادى ، ويهمل فور أن يضعف سوط الإرهاب ، ويعبث بالمسئولية لحظة أن يحس بتراخى الرقابة المادية عليه وعلى عمله .

إنه تناقض واضح أن يفترض فى إنسان :

* إنه مادى نفعى ومصلحى ، ثم مع ذلك :

* إنه روحى ، وإنسانى ، وغير أنانى ، يعطى لغيره ما فاض عنه من مجهوده .

أى كفيل ، أو أى ضامن يضمن أن الشيوعى ينتج فى العمل وفق طاقته وليس أقل منها ؟

وأى كفيل ، أو أى ضامن يضمن أن الشيوعى لا يأخذ من المال العام إلا قدر حاجته وليس أزيد منها ؟

وأى مقياس مجرد عن الحزبية والهوى يتخذه الشيوعى لتحديد حاجته فى الحياة وهو خاضع لحزبية الشهوة وواقع تحت تأثير هواه ؟

إن الشيوعية — من الوجهة النظرية — تبعد القوة فى التنفيذ . ولهذا مجتمعها حسبما يدور فى التصور والنظر أيضاً ، يقوم على الالتزام، واستبعاد

سلطة « البوليس » . إذن لا ضامن ولا كفيل هناك سوى الشخص الشيوعى نفسه . . سوى الفرد وحده فى المجتمع الشيوعى . . سوى هذا الإنسان المادى صاحب المنفعة المادية الذى ينكر التعاطف الإنسانى والرحمة بالإنسان. وهذا الشخص نفسه لا يتجه أصلا إلى المحبة والأخوة فى الإنسانية ، فلأى هدف يعطى من نفسه أكثر مما يأخذ من غيره ؟ ليس هناك هدف إنسانى ولا هدف مادى فى وضعه المفترض ، فكيف إذن يعطى ؟ ، ولمن ؟ إلا إذا كان أحمق . . يصنع آنئذ ما هو ضد اتجاهه .

وإذا كان الشيوعى — حسبما تفترض الشيوعية فى تصورها : أنه لا يأخذ إلا قدر حاجته ، وهو لأنه مادى يؤمن بالمادة وحدها وينكر الروحية الإنسانية والقيم العليا فى حياة الإنسان — هو وحده الذى يقدر حاجته : أيلتزم بالاعتدال فى تقدير هذه الحاجة ؟ . إن من يلتزم الاعتدال فى تقدير حاجته إنسان يؤمن بغيره معه ، على أنه إنسان مثله : يتعاطف معه ، ويتعاون وإياه على الخير المشترك . وهل الشيوعى الذى يؤمن بالصراع الطبقى يؤمن بإنسانية الأفراد جميعهم ممن معه فى المجتمع البشرى ؟ . وهل الشيوعى الذى ينادى بسفك الدماء للوصول إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة يؤمن بالتعاطف والتعاون على أساس القدر الإنسانى المشترك بين الأفراد ؟

إن المادى لا يعرف لشهوته حداً يقف عنده . إنه يطلب المزيد كلما حقق استجابة لها ، وشأنه كشأن الكلب لا يرضى أبداً ، ولا يشعر بحال استقرار نفسى طوال حياته : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » (١) .

---

(١) الأعراف : ١٧٥ — ١٧٦

وقضية : أن الشيوعية : هى مرحلة يعطى فيها الإنسان من إنتاج العمل قدر طاقته ، ويأخذ لمعيشته قدر حاجته .. تكذبها إذن المادية التى يقوم عليها الفكر الشيوعى ، وتجعلها خداعا أو خرافة من خرافات الماركسية فى تخدير التابعين لها .

وهكذا : ينتهى الفكر المادى المحسوس إلى خيال فى التصور ، أو إلى خداع فى التوجيه ، أو كذب على الطبعية البشرية ، والفكر الذى يجر إلى خيال ، أو خداع أو كذب .. فكر لا يقوم على أساسه توجيه بشرى سليم . لأنه عندئذ وسيلة للتغرير ، وليس مصدراً للتوجيه .

وهكذا : منطق الإيمان بالاقتصاد وحده فى حياة الإنسان ، ومنطق الملكية العامة كأساس للترابط الاجتماعى وقيام مجتمع ذى طبقة واحدة التزم أفرادها : بأن تعطى من الإنتاج حسب الطاقات ، وتأخذ من منفعة المال حسب الحاجة .. منطق يبتدىء بمحسوس وينتهى إلى مغيب لا يقع .. منطق يجمع بين النقيضين . ومنطق يجمع بين النقيض ونقيضه هو منطق عابث ، يخفى وراءه غاية غير إنسانية .

* والدين فى هدايته وتوجيهه يوصى بالعدل فى غير تحيز ما فيكلف القرآن رسوله الكريم بالتزام العدل التزاماً تاماً ، وبالابتعاد عن اتباع هوى المحسوبية والغرض : « **فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم** »(١) .

وكما يطلب الإسلام تنحية المحسوبية والغرض فى أى مجال من مجالات الحياة وبالأخص فى جانب السياسة والقيادة العامة .. يطلب العدل فى الحكم : بين الأفراد : «**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** »(٢) . ويطلب العدل فى

---

(١) الشورى : ١٥ (٢) النساء : ٥٨

الشهادة فى قضية ما ، وعدم التأثر فيها بالميل الإنسانى – حباً أو كراهية– والإخلاص فيها لله وحده : « **يأأيها الذين آمنوا : كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى** » (١) . . « **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** »(٢) .. ويطلب العدل كذلك فى تسجيل الدين بين طرفين : « **يا أيها الذين آمنوا : إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل** »(٣).. يطلب العدل فى كل ذلك ، ويطلب تنحية الميول الشخصية عن أن يكون لها تأثير فى تطبيق العدل بين الأفراد .

ويؤكد إذن بكل ذلك معنى العدل فى ذاته . والعدل هو توازن وعدم إجحاف بأحد الطرفين : فالعامل يأخذ أجره على قدر إنتاجه فى العمل وجودته فى الإنتاج ، ورب العمل يأخذ ما أنتج له من عمل على قدر ما أعطى من أجر . والمشترى يأخذ ما اشتراه ، والبائع يأخذ ثمن ما باعه من سلعة حسبما اتفق عليه فى عقد البيع مثلا بمثل ، وكل ذى حق يأخذ حقه كما قدر له .

وعدل الدين إذن عدل غير متحيز فيه لسبب من أسباب التحيز . والدافع للمؤمن إلى عدم التحيز ليست الاستجابة إلى نداء القانون ، ورهبة السلطة المشرفة على تنفيذه . إنما إيمان المؤمن بالله .. إنما هو القوة النفسية الداخلية التى تكونها الخشية من الله وحده . وهى تلك القوة التى تولدت عن مشيئة المؤمن عند دخوله الإيمان ، وعن التزامه – مختاراً وفى طواعية – بمبادىء الهداية الإلهية التى آمن بها ، ومن بينها : العدل .

* وكما يوصى الدين بالعدل فى غير تأثر بشهوة أو هوى .. يوصى بما يسمى « بالإحسان » أيضاً . وهو مرحلة من مراحل مستوى الإيمان

---

(١) المائدة : ٨

(٢) الأنعام : ١٥٢

(٣) البقرة : ٢٨٢

ترتفع فوق العدل عند المحسن . فالمحسن لايقف فى صلته بالآخرين عند حد مبادلة المثل بالمثل فى المعاملة ، والأخذ والإعطاء .. لايقف عند حد التوازن أو الموازنة ، بل يعطى من مجهوده البشرى ، ممثلا فى مال ، أو فى عمل ، أو فى علم ، أو فى فن وخبرة ... أو فى غير ذلك ، أكثرمما يأخذ فى مقابله : « **إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان** »(١) .

وصور الإحسان عديدة . هناك :

١ ـ الإحسان فى الإيمان بقوة التصديق ، وعدم التردد فى الخضوع والامتثال لله جل شأنه : « **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** »(٢) .

«**ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى**»(٣) .

٢ ـ والإحسان فى بذل المال والنفس . وذلك بالجهاد فى سبيل الله: « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين** »(٤) .

٣ ـ والإحسان فى المعاملة الإنسانية ، بتكريم الوالدين ورعايتهما : « **ووصينا الانسان بوالديه إحسانا** »(٥) .

٤ ـ والإحسان فى الأخذ والعطاء : فى المطالبة بدية القتيل وفى دفعها : « **فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان** »(٦) .

٥ ـ والإحسان فى الطلاق بتكريم المطلقة وعدم إمساك حقها عنها ورعاية حرمتها : « **الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** » (٧) .

---

(١) النحل : ٩٠
(٢) النساء : ١٢٥
(٣) لقمان : ٢٢
(٤) العنكبوت : ٦٩
(٥) الاحقاف : ١٥
(٦) البقرة : ١٧٨
(٧) البقرة : ٢٢٩

٦ — والإحسان فى ضبط النفس : « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »(١) .

٧ — والإحسان فى العطاء المادى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها (البدن) لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين »(٢) . .

هذه صور من الإحسان يعطى فيها المحسن من نفسه ومن مجهوده البشرى فى غير مقابل مادى . . يعطى عن مشيئة ومحبة . إذ ليس الدافع للاحسان فى نفس المؤمن سوى أن إيمانه بالله قد حببه فى الآخرين ، مع قدرته على ترجمة محبته فى صورة عطاء مادى أو غير مادى لا يأخذ له مقابلا . فهو عمل اختيارى لا إكراه فيه إطلاقاً : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم »(٣) . .

وكل ما يترقبه المحسن من إحسانه ، أو يؤمل فيه هو . . رضاء الله عنه : « إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون »(٤) . .

ومستويات الإيمان بالله إذن هى الأساس الذى يصدر عنه المؤمن فى عدله ، وفى إحسانه معاً .

★ ★ ★

٥ والدين إذ يوصى بالعدل ، وبالإحسان يسير مع منطق واحد لا تناقض فيه ، كما يدفع بالإنسان إلى « التزام » قبله حراً ومختاراً ، لا يحتاج فى تنفيذه إلى رقيب ، أو محاسب خارج عن ذاته .

---

(١) آل عمران : ١٣٤
(٢) الحج : ٣٧
(٣) التوبة : ٩١
(٤) النحل : ١٢٨

ومنطقه — أى منطق الدين — : أنه يعد الإنسان كوحدة مستقلة ينسجم فيها الظاهر مع الباطن ، والبدن مع العقل أو النفس .. وأنه يطرح أمام الإنسان : الإيمان بذاته ، على أنها ذات أعدت من الخالق سبحانه بالعقل ، وتميزت به عن مخلوق آخر كالحيوان .. وأن هذا العقل له مهمة التوجيه فى كنف الهداية الإلهية .

والتوجيه السليم للعقل هو أنه إذا نصح الإنسان بالاستمتاع بمتع الحياة الدنيا فإنه فى الوقت نفسه ينصحه بعدم الإسراف فى ذلك ، لأن الاستمتاع بهذه المتع ليس هو الهدف الأخير للانسان . بل الهدف الأخير أن يعيش مع غيره فى جو إنسانيته ، وهو جو الصفاء فى النفوس ، والمحبة بين القلوب ، والتآلف والتعاون على قضاء الحاجيات وهو جو روحى .. وليس جو الحقد ، والصراع الدموى .. وليس هو جو الأنانية والنفاق .. وليس هو جو النفعية والوصولية . . وليس هو جو المادية الكلابية . وهنا يكون فى النفوس من وجهة نظر التوجيه السليم : مكان للآخرين .. وهنا يأتى دور الإحسان فى حياة الإنسان إلى هؤلاء الآخرين ، بعد العدل فى معاملتهم .

والدين بذلك واقعى ، لأنه أسس الإحسان — وهو العطاء أكثر من الأخذ — على جانب واقعى فى الإنسان ، وهو جانب إنسانيته أو روحيته ، بعد نظرته إلى الفرد على أنه بدن ، وما وراء البدن من : نفس أو روح.. وعقل ، وعلى أنه موجود مادى .. وغير مادى ، وأنه متفاعل فقط مع عالمه المادى الذى يعيش فيه ، وليس وليداً له ولادة مطلقة ، وليس مخلوقاً تابعاً لعوامله المادية وحدها . والإنسان بناء على هذه النظرة الإنسانية يؤثر فى الوجود المادى حوله ، كما يتأثر به . وتاريخ الإنسان هو إذن هو :

تاريخ الأحداث التى وقعت من الإنسان أو أثرت فيه ، وليس هو قصة الخلق والتكوين وقفاً على هذه الأحداث فى مباشرتها لخلق المجتمعات البشرية.

ونظرة الدين إلى الإنسان هى نظرة ثنائية فى طبيعته ، بينما نظرة الفكر المادى إليه هى النظرة على أنه وحدة مادية فحسب .

وخطأ هذا الفكر المادى أنه يرتب مرحلة « الشيوعية »— وهى مرحلة يتصور أن يعطى فيها الفرد الشيوعى من نشاطه وطاقته أكثر مما يأخذ لحاجته ، وذلك لايقع من الإنسان، إلا إذا خرج عن نطاق الموازنة المادية فى التعامل — يرتب هذه المرحلة على إنكار ما هو غير مادى .. أى على إنكار : أن يقع من الإنسان ماهو مادى فى غير مقابل مادى . إذ هو فى مرحلة الشيوعية يتصور أن يكون ما أخذه الشيوعى مادياً لحاجته أقل مما أعطاه من نشاطه وإنتاجه المادى . وهناك إذن فرق ليس بمادى بين الأخذ والعطاء الماديين ، وهو : « الفضلة » من نشاط الإنسان التى بقيت دون أن يكون لها مقابل مادى . وإذن لا تتحقق مرحلة الشيوعية بحال ، طالما كانت النظرة إلى الإنسان نظرة مادية فقط . وإذن افتراضها فى الفكر المادى هو افتراض خيالى .

★ ★ ★

○ والحقيقة فى تجارب الحياة البشرية : أن الإنسان ليس مادة فقط يصيغها التاريخ المادى ، ويصورها اقتصاد المجتمع حسب أوضاعه . وإنما للانسان فاعليته فى بناء المجتمع نفسه وفى خلق وضعه الاقتصادى . وإذا قيل : للانسان فاعلية يراد بذلك : نشاطه الروحى والنفسى ، أى نشاطه الذى ينتمى إلى الخصائص الإنسانية غير المادية فيه . فالمجتمع الإسلامى مثلا ليس وليد العوامل الاقتصادية أو المادية لمجتمع المشركين فى مكة ولا فى

شبه الجزيرة العربية . إذ هو مجتمع إنسانى ذو خصائص رفيعة فى الإنسانية تختلف تماماً عن تلك المظاهر العابثة والفاسدة التى كانت تسود مجتمع مكه عند قيام الدعوة الإسلامية . وإنما هو مجتمع أوجدته هذه الدعوة على أسس من هداية الله . وبالتعبير الإنسانى : هو مجتمع أقامه نشاط فرد ، وهو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . ونشاطه كان نشاطاً إنسانياً ، أى نشاطاً روحياً ، بعيداً كل البعد عن اعوجاج المادية التى كانت طاغية يومذاك .

ودعوة « كالفن » — فى حركة الاصلاح الدينى فى أوروبا ، وهى دعوة دينية روحية — إلى حل الربا فى المعاملات المالية ، كانت عاملا رئيسياً فى خلق مايسمى « بالمجتمع الرأسمالى » وهو مجتمع مادى . وإذن العامل الاقتصادى أو المادى ليس ذا فاعلية دائماً . أى على عكس مايدعيه الفكر المادى .

وإذن هناك قوة غير مادية ، بجانب القوة المادية ، بين عوامل التأثير والتغيير فى هذا الوجود المادى ، أى فى عالم الدنيا . وإذا مثلت روح الإنسان ، أو نفسه ، أو عقله .. القوة غير المادية فيه ، فإن بدنه بما له من أجهزة وغرائز عديدة ، يمثل القوة المادية فى طبيعته . ونظرة الدين إلى هذه الطبيعة المركبة تصور إذن حقيقة الوجود الإنسانى فى وضوح .

والعالم المادى — ككل — بما فيه من عوامل القوة والفاعلية المحسة أو التى تكشف عنها تجارب الإنسان المادية ، إذا شكل قوة مادية تشد الأبصار إليها .. فإن وراءها قوة روحية كبرى تمنح عوامل المادة فى العالم : الفاعلية ، وقدرتها على التحريك والحركة . وهى قوة لاتدركها الأبصار .. هى الله جل شأنه .

وهكذا : الوجود المادى يخفى وراءه وجوداً آخر روحياً :

فوراء بدن الانسان توجد روحه .

ووراء العالم كله يوجد المولى عز وجل .

والوجودان معاً — وجود الروح ، ووجود المادة — يصوران حقيقة الكون ، ويشرحان مايدور فيه من أحداث وتغيير .

الفصل الرابع

تغيير المجتمع

إن معنى : « المجتمع » معنى حضارى ، لا يتحقق فى مجموعة من الناس إلا بعد ان يجتمعوا على فكرة.. أو على مبدأ ، أو جملة من المبادىء يرون فيها ما يحقق وحدتهم فى اجتماعهم ، وما يدرأ عنهم أمر اعتداء الغير عليهم .

وقبل مرحلة « المجتمع » فى جمع الناس ، هناك :

الأسرة .

ثم القبيلة .

وجمع الناس فى واحدة من هاتين الدائرتين لا يعود إلى الاتفاق على الفكرة أو المبدأ ، بل يعود إلى صلة « القرابة » ولحمة الدم والنسب .

فإذا تجاوز الناس فى تجمعهم عامل القرابة والدم . . إلى اعتناق الفكرة أو المبدأ كانوا أصحاب حضارة . أى خرجوا عندئذ من الدائرة الطبيعية أو « البدائية » . . خرجوا من الرباط المادى وحده وهو رباط النسب والدم ، إلى رباط آخر معه أو بديل عنه هو رباط الفكرة أو المبدأ . والفكرة أو المبدأ ظاهرة الانسانية فى معناها الخاص . أى أنهم عندئذ ينتقلون من دائرة الخصيصة الحيوانية . . إلى ظاهرة الإنسانية الخالصة . والقرآن يمتن على العرب بأنه نقلهم من هذا الرباط المادى الحيوانى وحده . . . إلى الرباط الإنسانى الخالص وهو رباط المبادىء ، إذ يقول: « **واعتصموا بحبل الله جميعاً** (أى ترابطوا وتماسكوا جميعاً على أساس من هداية الله وحدها ، وهى هداية المبادىء) **ولا تفرقوا** (أى لاتعودوا

من جديد إلى رباط القبلية أو الأسرة . لأنه رباط مادى بدائى) **واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء** (اى بسبب اختلاف القبائل و الأسر وشأن العامل المادى أنه يفرق ولا يجمع ، وأنه يدعو إلى التخاصم والبغضاء ، وليس إلى التعاون والتواد) **فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً** (أى جمع قلوبكم على أساس من الإيمان بالله وحده ، وعلى مبادىء الهداية الإلهية فى رسالة الرسول محمد علية الصلاة والسلام . وبذلك أصبحتم سواء فى الإعتبار الانسانى : لا فرق بين شريف وحقير ، ولا غنى وفقير ولا بين من هو من قبيلة كذا . . وقبيلة كذا ، كما أصبحتم إخواناً متحابين : تستهدفون جميعا هدفاً واحداً ، وهو تطوركم فى معانى الإنسانية وخصائصها ، والإنسانية ليست مادة توزع ، ولكنها حصيلة مجهود بشرى شاق ، يوجه أولا ضد هوى النفس وشهواتها) . **وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** (وذلك بسبب سيطرة القبلية عليكم ، ودفعها إياكم إلى الخصومات والحروب . والخصومات والحروب سبيل التلاشى والفناء ، ومن قبل ذلك هى : سبيل الشقاء ، والقلق ، والاضطراب . ولم يكن هناك منقذ لكم من هولها سوى اجتماعكم على مبادىء الرسالة الإلهية ، وتجاوزكم بذلك حدود : البدائية والعوامل المادية البحتة ، التى هى مصدر الخلاف والفرقة) **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** » (وعلى هذا النحو من الانتقال من دائرة عوامل الخصومة والشقاء — وهى دائرة القبلية — إلى دائرة الترابط على أساس من الإيمان بالله ومبادىء الرسالة . . إلى دائرة الأخوة والمحبة ، يعطى لكم الله دليلا وأمارة من أمارات وجوده . وينتظر منكم الآن أن تستمروا فى السير وفق هدايته ، حسبما جاء بها القرآن الكريم) (١) .

إن هذه الآية تصور الفرق بين « اجتماع » على اساس القبلية ، و « اجتماع » آخر على أساس المبادىء والفكر . . كما تصور النقلة من

---

(١) آل عمران : ١٠٣

وضع بدائى إلى وضع حضارى .. من وضع يقوم على أساس العامل المادى الحيوانى وحده .. إلى وضع يتجاوز ذلك إلى الإنسانية وما تتميز به من ظواهر التفكير ومبادىء السلوك .

إنها — أى هذه الآية — تصور قيام « المجتمع » الإنسانى ، كما تصور الأساس الأول للحضارة البشرية فى شبه الجزيرة العربية .

طريق التطوير :

وفى تكوين المجتمع الإنسانى فى شبه الجزيرة ، وقيام عهد حضارة إنسانية متصلة بتكوينه — على أنقاض التجمعات الأسرية ، والقبلية فيها — كان طريق الدعوة الإسلامية إلى ذلك هو طريق « الإقناع » وليس طريق الإكراه والإلزام فى صورة ما .. كان طريقها مخاطبة الإرادة الفردية فى كل إنسان ، آمن حراً مختاراً بمبادىء الدين ورساله الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإذ ينشد « التحول » من وضع اجتماعى أدنى إلى وضع اجتماعى آخر أرفع منه مستوى : إرادة الإنسان وحريته . . فإن التحول نفسه يسلك سبيل التطور عندئذ . إذ التطور : هو ترك عملية الانتقال فى الإنسان : إن فى دائرة اعتقاده ، أو تفكيره ، أو سلوكه . . إلى إمكانياته البشرية ، وإرادته ومشيئته التى تتكون ، أثر تنويره بالمبادىء العامة ، تلك المبادىء التى ترسم له إطار الإنسانية ، فتأخذه فى طريق التنوير وتلزمه ذاتياً بالإطار المحدد لها .

والتطوير إذن هو عملية بشرية تتطلب مرحلتين ، **أولاهما :**

مرحلة التنوير والتوضيح ، أو مرحلة ما يسمى بالهداية فى مجال الدين. وهى تتوقف على فيلسوف إن كان عمادها الفكر ، وعلى داعية إن كان أساسها الدين .

وثانيهما : الإيمان بمبادىء الفلسفة أو الدين ، إيماناً تنفعل به نفس المؤمن وتكون طواعيه لتلك المبادىء ، وما تمليه عليها كمنهج للحياة .

وعلى سبيل المثال : دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مبادىء الإسلام وهدايه الله . فكان دوره كداعية : عرض مبادىء الدين وهدايته ، حسبما يوحى إليه ، دون أن يتدخل هو بشخصه من قريب أو بعيد لحمل من يدعوهم إلى اتباع دعوته : « **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، ولا تسئل عن أصحاب الجحيم** »(١) . . فقصرت رسالته على إعلان الحق مجرداً عن أى تأثير . ولأن رسالته كانت قاصرة على إعلان الحق المجرد فى ذاته . . لم تكن على الرسول عليه السلام : مسئولية الرفض لمن يرفض ممن يدعوهم : « **ولا تسئل عن أصحاب الجحيم** » .

ورسالته على هذا النحو هى رسالة الرسل من قبله : « **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » (٢) . . وهذه الظاهرة فى رسالة الرسل بهداية الله — وهى ظاهرة الوقوف عند إعلان الحق وحده مجرداً عن التدخل الشخصى — من شأنها أن توفر جواً من الحرية لإيمان من يؤمن بتلك الهداية ولا يشوبه أى اكراه وإلزام . وبالتالى فإن الارادة التى يكونها الإيمان عندئذ تكون إرادة حرة مستقلة .

فإذا أضيفت إلى ظاهرة الرسالة الإلهية عامة : ظاهرة أخرى لمبادىء الدين ، وهى ظاهرة تجرد هذه المبادىء عن الحزبية والهوى . . كان الانسان فى تطوره على أساس من الدين ، وفى إنتقاله من وضع اجتماعى أدنى إلى وضع آخر أسمى منه ، غير خاضع لعامل من عوامل التأثير سوى ذات الموضوع . . كان الانسان حراً ، وكان تقدمه فى خطوات الانتقال ، أو تخلفه فيها عندئذ ، يرتبط بمدى إمكانياته هو ، وطاقاته البشرية . . أى يرتبط باستعداده الفطرى فى التحول . ويتبع تقدمه أو تخلفه . . مسئوليته الفردية القائمة على حريته ومشيئته نحو التحول .

---

(١) البقرة : ١١٩ — (٢) الأنعام : ٤٨

والفلسفة التى يدعو فيلسوفها إلى تحول اجتماعى إن خلا أسلوبه من التأثير الشخصى . . فإن موضوع الفلسفة نفسه لا يمكن أن يخلو من الحزبية والهوى ، بحكم أن الفيلسوف صاحب الفلسفة هو إنسان يخضع فى تفكيره لمؤثرات وراثته وبيئته وتوجيهه .

وهذا الخضوع بدوره ينعكس فى غير وعى على أسلوبه فى توضيح فلسفته . وهنا تكون مشيئة الانسان نحو التحول القائم على الفلسفة من وضع إلى وضع اجتماعى ، ذلك الوضع الذى يدعى له : أنه أفضل من سابقه . . مقيدة بما قدم لها من فكر فلسفى قد لا يكون أفضل فى واقع الأمر ، وإن ادعى له ذلك .

ومن نتائج التحول عن طريق « التطوير » فى انتقال الانسان من وضع اجتماعى أدنى إلى وضع أفضل منه : أن فاعليته — أى التحول — أبقى على الأحداث ، وأبعد أمداً فى البقاء . أما أنه أبقى على الأحداث فإن الإيمان النفسى يعتبر حاجزاً تتحطم عنده عوامل التغيير الطارئة وتتلاشى ، إذ لا تنال عوامل التغيير من وضع اجتماعى رفيع قائم إلا إذا ضعف الإيمان النفسى . عندئذ فقط تبقى عوامل التغيير قوية ، وقد تعيد الوضع الاجتماعى إلى مستواه السابق على التحول . . أى تعيده إلى المستوى القبلى ، أو مستوى العصابات التى تتجمع على أساس المنافع المادية وحدها عن طريق التسلط. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «**ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم** (وهى نعمة التحول إلى مجتمع حضارى ، يستتبع : الأخوة ، والمحبة ، والتماسك بين الأفراد) **حتى يغيروا ما بأنفسهم** (من إيمان بمبادىء الحق ، بدلا من روابط القبيلة والأسرة) **وأن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون ، والذين من قبلهم ، كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون ، وكل كانوا ظالمين**» (١) . . وما ذكرته الآية الثانية هنا من التمثيل بمجتمعات آل فرعون ومن قبلهم من تغيرها ،وهو هلاكها

(١) الأنفال : ٥٣ — ٥٤

وإفناؤها ، بعد تغير ما بنفوسها من تكذيب آيات الله وهدايته والتجائها إلى الظلم . . يدل على التغيير فى صورته العامة ، وكمبدأ عام وهو : أن تغيير ما بالنفوس أولا : مقدمة تستتبع تغيير المجتمع . فإن تغيرت نفوس أفراد المجتمع إلى ما هو أسمى تغير المجتمع ذاته نحو السمو . وإن تغيرت نفوس أفراد المجتمع إلى ما هو أسوأ ازداد المجتمع فى تغيره نحو السوء . . فالهلاك والفناء . والربط بين هذه المقدمة والنتيجة فى التغيير كمبدأ عام . . يصوره قول الله تعالى : « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** »(١).

وأما أن التحول عن طريق « التطوير » هو أبعد أمداً فى بقاء المجتمع وتماسكه فيعود أيضاً إلى طبيعة الإيمان ، كعامل نفسى يترسب رويداً رويداً حتى يستقر فى عمق النفس . وعندئذ : قلما يخرجه منطق الانسان أو شعوره ، ولو كان منطقاً أو شعوراً مناوئاً لمضمونه ، من استقراره ؛ ثم بالتالى من فاعليته ، إلا بعد وقت ، ومعاناة جهد نفسى وفكر متواصل أى أن المجتمع الذى يتحول عن طريق التطوير إلى وضع معين لا يسرع إلى التحول من جديد إلى وضع عكسى . وإنما يحتاج تحوله عنه إلى زمن ، بقدر ما أخذ تحوله إليه من زمن أو أكثر ، إن جعل الإقناع — وليست القوة — سبيل التحول الجديد كذلك .

طريق الثورة ، أو الانقلاب :

والطريق الثانى لتغيير المجتمع ، هو طريق الثورة أو الانقلاب . وهو طريق ينحى «الاختيار» والمشيئة الفردية جانباً ، وبالتالى : ينحى الاقتناع ثم الإيمان من سبيل « التحول » . وينظر إلى نفس الانسان كجزء مادى على غرار أجزاء البدن كلها : تدفع ، وتتحرك فى الاتجاه المكرهة عليه . وعلى قدر قوة الدفع والتحريك يكون مداها — أى مدى النفس — فى التحول ، ونحو غايته .

---

(١) الرعد : ١١

طريق الثورة طريق خارجى عن الذات • أى هو طريق غير ذاتى : يحكم القانون وحده ، الذى يوضع من قبل قائد الثورة ، كما يحكم القوة المادية المنفذة له بالإكراه •• هو يفرض « التحول » فرضاً ، ويسلك إلى فرضه — عدا القانون والقوة — سبيل إغلاق منافذ الإدراك لدى الأفراد عن الرؤية والسماع ، لغير ما يطلب عرضه فى مشاهدة أو قراءة ، ولغير ما يراد اسماعه من أخبار وأحاديث .

وبما يريد هذا الطريق أن يعرضه — سواء فى الصحف والدوريات ، أم فى الأجهزة الناقلة للصور ، أم فى برامج التعليم وكتب الثقافة ، للقراءة والمشاهدة ، وبما يريد أن يسمعه من أخبار وأحاديث — يستهدف فى دائرة الجيل المعاصر للثورة من الأجيال التى نشأت قبلها : محو القيم التى ارتبطت بها نفسه أو إضعافها ، كما يستهدف وضع القيم الجديدة للثورة أو الانقلاب بديلا عنها ، أما فى الجيل الناشىء فيستهدف تزويده بالقيم الجديدة من أول الأمر ، والحيلولة دون تسرب قيم أخرى مناوئة لها وتشكك فيها ، وبالأخص من تلك القيم السابقة عليها .

و« الثورة » التى ترفع شعار : « التقدمية » فى قرننا العشرين تقصد إلى الأمام وحده ، دون الماضى . . تقصد أن يكون الاعتبار لما تأتى به من قيم وحدها ، وأن يكون الإغفال لقيم الماضى كلها ، مهما كان لها من فاعلية وأثر فى ترابط أفراد المجتمع على أساس منها . . تقصد الوقوف فقط عند ما تقدمه هى من قيم ، والرفض والتنكر لكل قيم أخرى سبقت فى توجيه المجتمع .

و« التقدمية » التى ترفع كشعار لبعض الثورات المعاصرة : لها إذن معنى مزدوج : تنطوى على رفض ، وقبول •• رفض للماضى ، وقبول للجديد. وليس بضرورى أن يكون الماضى المرفوض من القيم •• مهلهلا أو ساقط القيمة وعديم الاعتبار ، كما أنه ليس بضرورى كذلك أن يكون الجديد من القيم •• صاحب اعتبار ، وصاحب قيمة من شأنها أن يحرص عليها

المجتمع لأنها لصالح مستواه الإنساني : فى ترابطه وفى صفاء العلاقات بين أفراده .

والجديد من القيم الذى تقدمه الثورة أو الانقلاب ليس بلازم أيضاً أن يكون جديدا على البشرية . وإنما جدته فقط فى أنه مغاير لما كان عليه المجتمع حتى قيام الثورة أو الانقلاب . والمغايرة إذن هى المعيار بين القديم والجديد ،وهى الدافع لرفض السابق ، ولقبول اللاحق . والماضى فى نظر الثورة الموصوفة بالتقدمية : هو ماض بغيض مكروه لها .

ولكن فى مقابل مايسمى بالثورة التقدمية — وهى الثورة الماركسية — هناك نوع آخر من الثورة تم فى قرننا العشرين يستهدف إزالة العقبات من طريق « التطور » .. يستهدف وصل المستقبل بالماضى وإحياء القيم التى كانت للمجتمع وقامت عوائق خارجة عن إرادة أفراده : تقطع حاضره عن ماضيه .كثورة الجزائر فى النصف الثانى من القرن العشرين . فهى ثورة شعب عربى مسلم ضد المستعمرين من الأجانب عنهم : فى دينهم ولغتهم ، وتاريخهم ، وثقافتهم ، أراد هذا الشعب أن يبعد عنه الاستعمار ليخلى السبيل إلى تطور المجتمع على أساس من قيم الماضى له . وهى القيم الإسلامية . وهى إذن ثورة ليست على ماضى المجتمع بل على حاضره الذى كان له ، وهو الحاضر الأجنبى الغريب عنه . وإذا وصفت ثورة الجزائر بعد ذلك : بأنها تقدمية فمعنى ذلك : أنها تريد أن تفسح الطريق فى مستقبل المجتمع الجزائرى لينمو ويتطور على اعتبار القيم التى كانت له ، وليس على اعتبار إضعافها أو إزالتها . وقد أريد لهذه الثورة بعد عهـــد استقلال الجزائر أن تأخذ طريق الماركسية فى الثورات

ولكن ما تم فى ١٩ يونيه سنة ١٩٦٥ أعاد لها فتح الطريق لتأخذ من ماضى المجتمع نحو مستقبله . وعلى هذا الغرار كان التصحيح الذى تم فى أكتوبر سنة ١٩٦٥ للثورة الأندونيسية ، بعد ما كادت تغلب النزعة الماركسية عليها . وهما ثورتان فى آسيا وأفريقيا بنزعتهما إلى الماضى مع الحرص على المستقبل : يختلفان عن الثورات الأخرى فى هاتين القارتين ، التى تنزع إلى الماركسية اللنينية ، وهى التى تبغض ماضى المجتمع وتقاومه كى ترسب فيه بدلا عنه : أيديولوجية البروليتاريا ، وما لها من قوانين تناوىء الدين أى دين ، وقيم الأخلاق التى عرفتها البشرية ، حتى الثورة الحمراء فى أكتوبر سنة ١٩١٧ .

وإذن من مفهوم الثورة : الإعتماد على الإلزام والإكراه قبل الإقناع . وسبيل الإلزام عدم إتاحة الفرصة للمعارضة . بينما من مفهوم التطور : الاختيار والاقتناع ، وليس الإلزام . وسبيل الاقتناع والاختيار هو بالعكس : إتاحة الفرصة للمعارضة .

والقرآن كما يعرض الدعوة إلى الإيمان فى مشيئة تامة . . يجعل المعارضة لها فى صور مختلفة . لأن طريقه كان طريق التطور : **« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ... »** (١) .

.. يسجل القرآن ادعاء المشركين الماديين فى معارضة الرسول ودعوته : بأن دعوته إلى التوحيد كذب واضح فى اختلاقه .. وبأنها إفك مفترى ، وأن ما أوحى إليه فى جملته هو سحر : **« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ،**

---

(١) الأنعام : ٤ — ٥

وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين » (١) .

.. كما يسجل إعلانهم النفرة والكراهية للقرآن ، بحيث يحاولون أن يجعلوا بينهم وبينه حجاباً ، كما يسجل استهزاءهم به وبصاحب الدعوة عليه السلام عندما يستمعون إليه . وإذ يعلنون كراهيتهم واستهزاءهم بالقرآن يبلغون فى معارضته مبلغ إنكاره وعدم التسليم بصحته : « وإذا قرأت القرآن جعلنا (على حسب زعمهم) بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة (وهم الماديون الوثنيون – المشركون) حجاباً مستوراً . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقراً ، وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده .. ولوا على أدبارهم نفوراً . نحن أعلم بما يستمعون به (من الهزء والسخرية بك وبالقرآن) إذ يستمعون إليك ، وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » (٢) . . وليس أبلغ فى المعارضة من أن يتهموا الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون .

.. كما يسجل هذا الاتهام قوله تعالى : « وقالوا : يا أيها الذى نزل عليه الذكر : إنك لمجنون » (٣) .

مثل هذه الصور من المعارضة – وهى صور قاسية وشديدة – يثبتها القرآن الكريم جنباً إلى جنب مع المشيئة الكاملة فى قبول الدعوة . لأنه آثر الاقتناع ، أو آثر طريق التطور على سبيل« الثورة » أو«الانقلاب» : فى الإيمان بدعوته والسلوك طبقاً لتعاليمه .

* وبقاء الإلزام – وهو سبيل الثورة أو الانقلاب – رهن فقط بالقوة المادية الملزمة له . وهذا البقاء فى واقع أمره يطفو فوق سطح

---

(١) سبأ : ٤٣ (٢) الإسراء : ٤٥ – ٤٧
(٣) الحجر : ٦

المجتمع ، وقلما يصل إلى أعماق النفوس بين أفراده . وهنا تكون الظاهرة الاجتماعية الغالبة والشائعة فى مثل هذا المجتمع الثورى ، هى ظاهرة النفاق فى قبول الإلزام والتعامل معه . ولكن إذا كانت الثورة — كثورة الجزائر — طريقاً لإزالة العقبات لوصل المستقبل بالماضى فى المجتمع . . فإن بقاءها لا يرتبط بالقوة المادية فى دفعها إلا فى أولى مراحلها . وفقط بعد أن يظهر نمو المجتمع فى غده على أساس من قيم أمسه . . يكون عامل البقاء للثورة عاملا نفسياً عميق الجذور ، وهو عامل الإيمان بذات القيم التى تحرك المجتمع فى عهد الثورة . وهو نفسه العامل فى طريق التطور . والثورة عندئذ ثورة فى سبيل التطوير ، وليست طريقاً آخر مناوئاً له . ولكن فقط فاعليتها فى « عودة المجتمع » أسرع .. إلى قيمه الماضية .

والأمم صاحبة الحضارات التى توقف استمرار حضارتها بغير إرادتها ، أو لعوامل الضعف فى داخلها ، وعوامل الانقضاض عليها من خارجها — كالدول الإسلامية — هى بحاجة إلى « ثورة الجزائر » فى ربط مستقبلها بماضيها .. هى بحاجة إلى الكشف عن قيمها التى صنعت حضارتها بالأمس لتجدد البناء فيها فى غدها .. هى بحاجة إلى إزالة « جمود » الحاضر أو عقباته لتسير على هدى من الماضى وفى مشعل التقدم الإنسانى والتكنولوجى فى المستقبل

وتخطىء هذه الأمم صاحبة الحضارة إن هى تركت أصول حضارتها فى إصرار ونكران لها ، لتتبع قيما لفكر دخيل باسم « الثورة » كسبيل إلى ما يسمى بالتقدم فى المستقبل . تخطىء : لأنها ستبدد نشاطها وقواها وقدرتها على البناء فى سلبيات وخصومات ، ومحاولات للاقناع بالجديد

(المكروه والمفروض) . وقلما بعد ذلك : تصل إلى مستقبل واضح لها ، يكون مرحلة متصلة فى تاريخ حياتها .

إن التغيير طريقه الطبيعى واحد ، وهو « التطور » . وهو الطريق الأسلم فى البناء ، والأضمن فى النجاح .

أما الطريق الآخر فمحفوف بالمكاره والمشاق ، وإن كان له بريق خادع ، وهو بريق السلطة وجاه الحكم ، ولكنها سلطة تتأرجح وحكم مهتز .

الفصل الخامس

الرسول الأمى ، وموضوعية القرآن

* هو محمد بن عبد الله عليه السلام .

* هو ذاك الإنسان الذى تخلص منذ طفولته من تأثير الشهوة والهوى على تصرفاته . وما يروى عن آنس من أنه قد شق صدره فى طفولته وأخرجت منه المضغة السيئة قد يكون تعبيراً حسياً عن هذا التخلص ، أو بالأحرى ليس إلا تعبيراً عن : مدى تجنبه منذ الصغر ومنذ قدرته على الحركة ، لما يؤذى الذات أو يؤذى الآخرين ، وعن التزامه بالسلوك الإنسانى الكريم فى تصرفاته وفى مواقفه .

* هو الطاهر ، والأمين : لم يفعل إلا ما هو مقبول عند الناس . ولم ينقل أو يتحدث إلا من واقع ملموس .

* كان معداً بصفاته الإنسانية الكريمة لأن يتلقى رسالة من الله للبشر ، تجمعهم على الكرامة الإنسانية التى تتمثل فى الإيمان بالله وحده ، وتهديهم إلى الصراط السوى ، وهو صراط العدل والإحسان .

ولكنه لم يكن معداً لأن ينقل عن الآخرين من أهل الكتاب ممن صابوا طرفاً من رسالات الرسل السابقين . إذ كان أمياً : لا يستطيع الاطلاع على ما لديهم بالقراءة ، كما لا يستطيع تسجيله بالكتابة ، فضلا عن اختلاف اللسان بينه وبينهم : « **قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه** (أى يحيدون عنه ويكفرون به) **أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين** » (١) .

---

(١) النحل : ١٠٢ — ١٠٣

* فإذا أضيف إلى كونه عليه السلام أمياً : أن القرآن « موضوعى » يستهدف البشرية وحدها وتخليصها من آثار الشهوة والحزبية ، وآثار الشعوبية والعنصرية .. يستهدف نقل المجتمع الإنسانى من بداوة السلوك ، وقبلية التصرف والموقف .. إلى مجتمع ذى حضارة ترى فيها خصائص الإنسان فى بناء العلاقات ومباشرة التصرفات . . إذا أضيفت إلى أميته : « موضوعية » رسالته ، فإن صدقه فى هذه الرسالة لا يحيد عنه إلا جرىء فى الإنكار ، أو من هو واقع تحت تأثير دفع العادة أو جمود الذهن وحركة التفكير .

وموضوعية القرآن تتجلى :

أولا : فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والمعروف هو ما شاع فى عرف الناس قبوله واستحسانه . والمنكر هو ما راج لديهم استنكاره ورفضه . وما كان من المعروف أو المنكر على هذا النحو لا يختلف فيه فريق من الناس مع فريق آخر منهم . وبالتالى لا يمثل حزبية ولا غرضاً خاصاً . وإنما يعبر تعبيراً واضحاً عن « موضوعية » فى القبول أو فى الرفض .

وثانياً : تتمثل هذه الموضوعية أيضاً فى تحليل الطيبات ، فيما يستمتع به الناس : فى الأكل والشرب ، وفى العلاقة بين الرجل والمرأة . وفى تحريم الخبائث وتجنيب الناس إياها : فيما تشتهيه النفس كأكل الخنزير أو الميتة ، وكشرب الخمر ، ولعب الميسر ، وكالربا فى المعاملات المالية ، والزنا فى علاقة الذكر بالأنثى .

والطيبات هى ما تنطوى على المتعة التى لا يصحبها ضرر للذات ، أو للغير . والخبائث هى ما يؤدى تناولها أو مباشرتها إلى ضرر يعود على الذات ، أو على الغير ، أو عليهما معاً . وتحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث فى القرآن لا يستند فى هذا وذاك إلى التأثر بعادة فى مجتمع ما .

وإنما يستند إلى « موضوعية » فوق كل الفروق فى العادات والتقاليد فى المجتمعات البشرية ، وتستهدف الصالح العام وحده لكل إنسان ؛

وثالثاً : تتجلى هذه الموضوعية للقرآن فى تحرير المجتمعات مما وراء ذلك من قيود على الاستمتاع بمتع الحيـــاة المادية ، أو على المعاملات أو العلاقات .. تلك القيود التى وضعتها تقاليد معينة أو أعراف خاصة . وعلى وجه معين تحريرها من عبادة الأصنام ، وعبادة الإنسان للانسان ، ومن الاعتقاد فى الخرافات والأوهام .

وهذا كله بالإضافة إلى أداء عبادة المال ، ووجوب مباشرة العدل ، والسعى إلى سلوك طريق الإحسان : « **ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** »(١) .

إن « أمية » الرسول عليه السلام مع « موضوعية » رسالته ، هى : الحجة القاطعة إذن فى صدقه فى الرسالة .

وموضوعية الرسالة يبعدها عن أن تكون طريقاً للانتقام ، أو الانقلاب كما يبعد أن تكون الدعوة إليها لإثارة الأحقاد، وهدم أواصر الأخوةالبشرية بين الأفراد جميعاً .

... موضوعية الرسالة تجعلها تسلك مسلك التوجيه ، وتخاطب منطق الإنسان ، دون أن تخاطب شهوة المعدة أو الفرج ، وتحتكم إلى الإرادة الحرة فيه .

---

(١) الأعراف : ١٥٦ – ١٥٧

لذا : ما يعرضه القرآن من أمارات محسوسة فى الكون تشير إلى وحدة الله فى الوجود .. يقرها كل صاحب منطق سليم ، ويستخلص منها الدلائل كل من لا يعترض تفكيره تمسك بعادة أو تقليد خاطىء . وعلى نحو هذه الأمارات فى وضوح استخلاص نتائجها منها ما يضربه من أمثال .فهى توجه إلى العقل البشرى وحده :

نقف قليلا عند قوله تعالى : « **وضرب الله مثلا رجلين : أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ، ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** »(١) .. إذ من النظر فى هذا المثل يصل العقل تواً إلى التميز والمفارقة بين شخصين لاينبغى أن يكونا فى مستوى واحد . إذ أحدهما فاقد الارادة واستقلال الذات ، بينما الثانى يملك زمام أمر نفسه ، كما يملك شأن العدل بينه وغيره . ومن وصول العقل إلى هذا التميز بين موجودين فى عالم الوجود يدرك : أن هذا العالم لا يستطيع أن يوجده إلا من كان كامل القدرة على الأشباه والمتباينات . وكامل القدرة يجب أن يكون واحداً ، ويستحيل أن يكون متعدداً .

وبقدر ما تخاطب الرسالة الموضوعية لدعوة القرآن .. العقل البشرى ، بقدر ما تعتمد كذلك على الارادة الحرة والمشيئة المطلقة فى الانسان . أى تعتمد على الإقناع الذاتى بها : « **قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل** » (٢) . . فالحق — وهو دعوة القرآن — معروض فقط ، وغير مفروض بالقدرة المادية أو بالتحكم فى مصائر الأفراد وأرزاقهم ، والانسان له أن يهتدى فيؤمن بها ، أو ينحرف ويضل فيكفر بها . والقائم بأمر هذه الدعوة إن هو إلا مبلغ ومعلن لها . . إن هو إلا

---

(١) النحل : ٧٦ (٢) يونس : ١٠٨

موضح بعيد فى توضيحه كل البعد عن أن تكون له ولاية أو سلطة على من يدعوهم .

ولذا إذا كان موضوع الدعوة القرآنية إنسانيا ، من حيث المبادىء والقيم العليا التى انطوت عليها ، فأسلوبها إنسانى كذلك ، من حيث : بعده عن الإكراه ، ومن حيث : اتجاهه المباشر إلى عقل الانسان وحده . وبإنسانية موضوع الدعوة ، وبإنسانية أسلوبها مع ذلك : تقدم رسالة الرسول الأمى عليه السلام للانسانية حضارة فى مستوى رفيع ، تعجز البشرية حتى الآن عن أن تقدم لوناً من الحضارة يخلو من أثر الحزبية ومن وسيلة العنف والإكراه .

والقرن العشرون بما له من فخر الإبداع فى بحوث الفضاء والآلية ، والاعتزاز بالتوسع فى التطبيق التكنولوجى . فإن ما استحدثه من وسائل للتدمير الرهيبة يجعل من بعض الشعوب أمماً كبرى ذات نفوذ على حساب ما عداها ، كما يجعل من البعض الآخر أمماً صغرى تدور فى فلك غيرها ولسيادتها ومصالحها الذاتية .كما أن ما يتصارع فى هذا العالم من أيديولوجيات لا تعرف للقيم الانسانية العليا وزناً ، وإنما تمجد نظم حكم معينة والقوة المادية وحدها ، كما لا تعير حرية الانسان اهتماماً فى قبوله لما يشاء . بل تكرهه إكراهاً على قبول رأى معين بطريق مباشر أو غير مباشر . ولذا إذا كان القرن العشرون قرن الحضارة العلمية الصناعية ، فإنه قرن مفلس بالنسبة للحضارة الإنسانية الخالصة .

ومحمد الأمى عليه الصلاة والسلام فى بلوغه هذا المستوى الرفيع المعجز فى موضوع الرسالة وفى أسلوب الدعوة إليها ، إنما كان له ذلك بفضل اصطفائه من قبل الله لهداية البشرية . ولو لم يكن مصطفى ومختاراً من الله لوجد قصور فى موضوع الرسالة — أو لكان قد التجأ ولو مرة إلى الهوى أو الإكراه فى أسلوبها : **« أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً** (أى تناقضاً) **كثيراً »** (١) .

---

(١) النساء : ٨٢

لم يفرض عليه السلام دعوته إلى الحق على أحد ، عندما كان يستطيع أن يفرضها بالقوة على المكيين يوم أن دخل مكة فاتحاً وكان له النصر المبين إذ ذاك . وإنما بقى ملتزماً أساس الأسلوب فى الدعوة إليها : « **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** » (١) . وأسلوب دعوته لذلك لم يكن أسلوب ثورة ، وإنما كان أسلوب توجيه وإقناع . ولم يكن أسلوب انقلاب بل كان أسلوب تطور .

فالثورة والانقلاب — مع فرق بينهما — وسيلة لتمكن صاحب الفكرة من السلطة أولا عن طريق القوة المادية . ثم بعد أن يتمكن بفرض دعوته بكل الوسائل التى تصم الآذان بها ، وتعمى الأبصار عن غيرها ، وتغلق القلوب والعقول دون قبول ما سواها ، ثم شتان بعد ذلك بين موضوع دعوته عليه السلام وموضوع ما يسمى بالثورة أو الانقلاب فى عصر العلم والتيكنولوجيا . فبينما الحق للبشرية كافة يتجلى فيما جاء به وحى القرآن . . إذا بالهوى والشهوة يسطيران على خطوط الأيديولوجية الثورية وعلى وسائل نشرها .

إن الثورة أو الانقلاب : من أجل السلطة فقط ، بينما دعوة الحق التى جاء بها محمد الأمى عليه السلام هى لإصلاح البشرية ، وتمكين الخصائص الإنسانية فى العلاقات بين أفرادها . ولم يكن فى تصوره عليه السلام عندما قام بدعوته مبشراً ونذيراً ، هادياً إلى صراط الله : أن ينقض على عرش ملك أو نظام حكم ، ليرث الحكم وجاهه ، أو أن يكون ثرياً يحيا حياة الترف عن طريق ثراءه الطارىء . وإنما بقى فى تواضعه فى أسلوب الحياة قبل الدعوة ، ولم يتغير بعد أن دان له النصر ، وأصبحت له أمة متماسكة ، وقوة عزيزة الجانب تصد العدوان عن دين الله الذى اجتمع عليه من كانوا أشد فرقة فيما بينهم ، وأقرب إلى الهاوية بسبب خصومة بعضهم لبعض ، فى لحظة من اللحظات : « **واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** »(٢) .

---

(٢) آل عمران : ١٠٣

الفصل السادس

الهجرة وتاريخها .. فى السياسة الاسلامية

* يحاو للمستشرقين من الغرب والشرق على السواء — والمغرضين من الكتاب والمؤرخين ضد الاسلام : أن يصوروا هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم على أنها « فرار » وهرب من مكان إلى آخر بعيد ، حماية للنفس وأمناً على استمرار الحياة .

وربما يكون هذا هو : مفهوم الهجرة بالنسبة لفرد يريد أن يضمن لنفسه حياة مادية أفضل ، أو يخلق لنفسه جواً من الثقة والاطمئنان أكثر من الجو الذى يعيش فيه . وربما يكون هو أيضاً : مفهومها بالنسبة لجماعة من الأفراد على شاكلته .

ولكن الهجرة بالنسبة لصاحب رسالة وصاحب دعوة فى سبيلها لإصلاح البشرية ودفعها إلى الصراط السوى . . لا تكون من أجل الذات ووقايتها : الأضرار المادية ، أو من أجل حصولها على متع أفضل . وإنما تكون من أجل الرسالة نفسها ، ومن أجل تمكين دعوتها من أن تأخذ طريقها إلى التحقق فى تحويل المجتمع الإنسانى القائم على العبث والفساد والاعتداء والظلم . . إلى مجتمع إنسانى فى مستوى رفيع ، لايخلد إلى الأرض ولا ينجذب نحو الهوى والغايات الدنيئة .

وتلك كانت الغاية من هجرته عليه الصلاة والسلام وهجرة أصحابه : قبله ، ومعه ، وبعده .. من مكة .. أو من غيرها .. إلى يثرب . هاجروا إلى الله ورسوله ، ولم يهاجروا إلى دنيا يصيبونها أو متعة يستمتعون بها . والهجرة إلى الله ورسوله هى الهجرة فى سبيل الرسالة وفى سبيل الحفاظ

على القيم العليا والدعوة إليها • وهى الهجرة الخالدة فى تاريخ الإنسانية ، والهجرة التى يجازى عليها الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة معاً • إذ ترتبت عليها عدة نتائج تكون نظاماً لمجتمع إنسانى سليم : قام ليبقى ، ويزداد قوة فى تماسكه ترتب عليها :

« أن نقلت المسلمين من قلة فى العدد إلى كثرة فيه • إذ انضم إلى مسلمى مكة وهم من يعرفون بالمهاجرين : نصراؤهم وحلفاؤهم من أهل يثرب وهم من أطلق عليهم اسم الأنصار • كما أضيف إلى الفريقين معاً : من دخل تباعاً فى دين الله : من بعد الهجرة • • إلى فتح مكة ، وهم كثيرون •

• • ونقلتهم من ضعف إلى قوة : كانوا آحاد متناثرين فى مكة وفى الحبشة وفى أماكن أخرى ، فأصبحوا فى يثرب • • مئات وآلافاً مجتمعين ومترابطين على كلمة الله ، وليس اجتماعهم على اعتداء على أحد ، ولا على ظلم أو اضطهاد لإنسان •

• • ثم نقلتهم من أفراد ليس لهم كيان فى المجتمع • • إلى مجتمع له نظام حكم ، وسياسة ، ودولة لأفراده ، ومع غيره من المجتمعات المعادية ، أو المقاتلة ، أو المسالمة •

• • وإن حملت المسلمين على مباشرة الدفاع عن النفس ، فدخلوا الحرب ، وذهبوا إلى ميدان القتال ، ومروا بتجربة الهزيمة والنصر • وتخلف منهم من تخلف عن القتال حباً فى الذات وطمعاً فى سلامة النفس ، أو رغبة فى عون الأعداء ، وكان منهم المؤمنون صدقاً ، والمنافقون فى إيمانهم •

ويصور القرآن الكريم تجربة الهزيمة التى مروا بها فى «أحد» بقوله : **«ولقد صدقكم الله وعده** (بالنصر) **إذ تحسونهم باذنه** (أى تستأصلونهم عند الالتقاء بأمر الله) **حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم**

(باستهدافكم الغنائم فى القتال دون الدفاع عن الإيمان بالله وحده والحفاظ عليه) **من بعد ما أراكم ما تحبون** (من النصر على الأعداء فى أولى مرحلتى القتال مع المشركين) **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** (وهكذا فشلكم فى المحافظة على وحدة الهدف قسمكم إلى طائفتين : واحدة تريد متع الحياة الدنيا ممثلة هذه المتع الآن فى الغنائم من الأعداء ، وأخرى تريد الإيمان وتمكين رسالة الله فى الأرض ، وبذلك تنتظر جزاءها فى الآخرة) **ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** (وأدى تفرقكم وانقسامكم من أجل الهدف فى قتال : « أحد » إلى هزيمتكم . ولم يقصد بها انتهاء مجتمعكم ولا فناؤه ، وإنما قصد منها التجربة والاختبار للوقوف على أسباب الهزيمة ، كى تتلافى مستقبلا فى الاشتباك مع الأعداء . . قصد منها الابتلاء) (١) .

. . كما يصور دعاة الهزيمة المترددين فى إيمانهم فى هذا اللقاء فى « أحد » فيما يستطرد فى ذكره من موقعتها بقوله : « **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ، قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا** » (٢) .

.. ويصور من جانب آخر تجربة النصر فى موقعة « بدر » فرغم قلة عدد المسلمين فى مواجهة المشركين المكيين ، ورغم ضعف موقعهم فى المعركة بالنسبة لموقع أعدائهم . . رغم هذا وذاك كان النصر للمؤمنين ، لأنهم وضعوا قيم الرسالة والدعوة إليها فى الاعتبار الأول ، قبل اعتبار

---

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) آل عمران : ١٥٤ — ١٥٥ .

حياتهم أنفسهم . ولذا كان نصر الله لهم . يقول الله تعالى فى الحديث عن هذا النصر ، رغم ظروف عدم التكافؤ الواضح فى القوة العددية ، وفى المواقع الاستراتيجية : « **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان** (أى ما خصصنا به رسول الله والمسلمين من النصر يوم « بدر ») **يوم التقى الجمعان** (جمع المؤمنين وجمع المشركين فيها) **والله على كل شيء قدير . إذ أنتم بالعدوة الدنيا** (أى عندما كان المؤمنون بشط الوادى القريب وقد كانت الأرض فيه رخوة تسوخ فيها الأرجل ، ويشق السير عليها . ومن شأن ذلك أن يضعف من تحركاتهم فى القتال ضد أعدائهم) **وهم بالعدوة القصوى** (أى والأعداء بالشط البعيد للوادى وهو أكثر صلاحية للحركة) **والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد** (أى أن لقاءكم مع أعدائكم فى « بدر » جاء طبقاً لمشيئة الله وحده ، ولم يكن أثر ترتيب بينكم وبين أعدائكم . لأنكم لو عرفتم حقيقة أمرهم فى قوة العدد والعدة لتهيبتم منهم ، وربما يئستم من الظفر عليهم) **ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة** » (وإنما جاءت إرادة الله باللقاء بينكم وبين الأعداء فى « بدر » للفصل فصلا واضحاً بين قوة الإيمان وأثره ، وقوة الشرك والإلحاد ونهايته ، ولبيان : أن الإيمان لابد أن يستمر أثره ويمتد بقاؤه فهو الرافد للحياة ، بينما يزول الكفر لامحالة وينتهى مصيره حتما ، فهو مصدر الموت والفناء) (١) .

* .. وإن حملت المسلمين — قبل أن يستكملوا قوتهم الرجوع إلى البيت العتيق بمكة — على المرونة فى الأخذ والعطاء فى سياسة الأعداء ، حتى ولو كان على حساب أمر يهمهم أو ضرورة من ضرورات حياتهم .

---

(١) الأنفال : ٤١ — ٤٢

ففي نهاية السنةالسادسة من الهجرة في شهر ذي القعدة (مارس ٦٢٨م) طلب الرسول عليه السلام من أصحابه وهم بالمدينة أن يعدوا أنفسهم للعمرة معه في مكة ، كما يعدونها للتضحية في سبيل ذلك . فقد نزل عليه وحي الله في قوله في سورة الفتح : « **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لاتخافون، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** » (١).. ودعا مع المهاجرين والأنصار من أصحابه : بعض الأعراب ليكونوا سنداً لهم في مواجهة قريش، لوتعرض لهم المحاربون فيها . ولكنهم تخلفوا ، ونزل في هؤلاء الأعراب قوله سبحانه : « **سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً ، إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟ ، بل كان الله بما تعملون خبيرا. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا** (أي قدرتم أن لن يعود ومعه المهاجرون إلى موطنهم في مكة طول بقية حياتهم) **وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء** (أي وقدرتم كذلك أنهم سيهزمون ويولون الأدبار ، إن بقيت فيهم بقية من حياة عندما يواجههم كفار مكة) **وكنتم قوماً بورا** » (أي وكنتم قوماً فاسدين هالكين بتصرفاتكم) (٢) .

وكان كثيرون من المكيين — عندما علموا بقدومه عليه الصلاة والسلام ومن معه من صحابته عليهم رضوان الله - يرغبون في عدم مقاومة دخوله . غير أن فريق المحاربين منهم لم تزل له قوة ولم يزل على المعارضة في الدخول. وعندما وصل إليه — عليه السلام —نبأ هذه المعارضةاستقر وصحبه في الحديبية في مكان ليس ببعيد عن مكة حيث ابتدأ يتفاوض مع المكيين . وحين لم تصل المفاوضة إلى نتيجة أرسل عثمان بن عفان إلى مكة في حمايةأسرته فيها له، كممثل له . وعندما لم يعد وأشيع أنه قتل اجتمع عليه السلام مع صحابته تحت شجرة هناك سراً وبايعهم على نصرته لإتمام العمرة . وفي هذه المبايعة جاء

---

(١) الفتح : ٢٧ (٢) الفتح : ١١ — ١٢

قول القرآن الكريم : « **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما** » (١) .

ولكن وصل بعد ذلك عدد من المسكيين يعرض الصلح عليه ويعاهده على :

١ ــ أن يرجع الرسول عليه السلام والمؤمنون معه هذا العام (السادس من الهجرة) من حيث أتوا ، وأن يعودوا للعمرة فى العام القادم .

٢ ــ وأن يدخلوا مكة غير حاملين سلاحاً .

٣ ــ وأن لا يأخذوا أياً ممن تبعهم من أهل مكة ، إن أراد أن يرحل معهم .

٤ ــ وأن لا يمكثوا بمكة أكثر من ثلاثة أيام .

٥ ــ وأن يتركوا من يتخلف من المسلمين معهم بمكة ، إن أراد أن يبقى بها .

٦ ــ وعلى أن توضع الحرب بين الطرفين عشر سنوات ، يأمن الناس فيها بعضهم بعضاً .

وعارض فى هذه الشروط كثير من الصحابة ، وفى مقدمتهم على بن أبى طالب . لأنها شروط تدل على عدم التكافؤ بين الطرفين ، وعلى أن جانب المسلمين هو الجانب الضعيف . ولكن رغم ذلك أمر الرسول عليه السلام بقبولها ، لأنها تتضمن الاعتراف به وبجماعته . وهو أمر كان المسلمون فى حاجة إليه . لأنه سيمهد الطريق الآن لكثير من القبائل العربية ، عدا قريش ، ولكثير من أفرادها أيضاً ، للدخول فى الإسلام : فى غير خوف ورعب ممن هم سدنة البيت الحرام حتى هذه اللحظة ، وهم قريش .

نعم لم تعترف معاهدة الصلح فى الحديبية من جانب القرشيين المكيين بالرسول

---

(١) الفتح : ١٠

عليه السلام : على أنه رسول ، ولكنها اعترفت بكيان المسلمين الذاتى والسياسى . وذلك له مدلوله فى العلاقات بين الجماعات وفى السياسة الدولية.

وفى العام التالى ، وهو العام السابع الهجرى (٦٢٩م) أدى عليه السلام وصحابته العمرة . ودخل فى الاسلام أثناء إقامته بمكة كثيرون من القبائل ، كما دخل عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد . وهنا زادت قوة المسلمين نوعاً ، وكماً ، وأصبحوا على استعداد لأن يحموا أنفسهم ، ودينهم ، وحلفاءهم فى شبه الجزيرة . ومع تزايد قوتهم بقوا على الوفاء بالعهد الذى وقعوه مع مشركى مكة ، وبالأخص على أن توضع الحرب بين الفريقين عشر سنوات .

ولكن فريق المحاربين من المكيين وهم أئمة الكفر ساند قبيلة بكر ضد خزاعة التى تعتبر حليفة الرسول عليه السلام. وهنا اعتبر تصرف هذا الفريق نكثاً للعهد فى صلح الحديبية . وبنكثهم إياهم أصبح المسلمون فى حل من عدم الوفاء به . وجاء تعبير القرآن الكريم عن ذلك فى قول الله تعالى : **« وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر** (وهم هؤلاء المحاربون . وسماهم أئمة الكفر لإصرارهم وعنتهم فى المعارضة طوال هذه المدة) **إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ، وهموا باخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين »**(١).

وبنكث المشركين لعهد الصلح فى الحديبية ، أصبح الطريق مفتوحاً أمام المسلمين ، لا قيود فيـــه . وبازدياد قوتهم المادية والمعنوية أصبحت لهم استطاعة على إنهاء كل صيحة لعدو تواجههم . وترتيباً على ذلك ترأس الرسول عليه السلام فى شهر رمضان من السنة الثامنة من الهجرة (ديسمبر ٦٢٩م) جيش المسلمين المكون من المهاجرين والأنصار ، والأعراب ، قاصداً به مكة .

---

(١) التوبة : ١٢ — ١٣

وقد أثار قدوم المسلمين ذعراً وقلقاً بين المكيين الذين أصبحوا فى وضع تقل فيه رغبتهم فى الحرب يوماً بعد يوم . وعندما اقترب جيش المسلمين من مكة التقى أبو سفيان فى وفد كان فيه بعض الخزاعيين بالرسول عليه السلام وأعلن الطاعة له ، وحصل منه على وعد بالعفو عن جميع القرشيين الذين يلقون سلاحهم ويعلنون بذلك عدم معارضتهم . ثم كان الفتح المبين لمكة ، واستعادتها . وكان فتحاً مبيناً ونصراً عظيما : لا لأنها موطن المهاجرين من المسلمين فقط ، ولكن لأنها كانت الموطن الأول للدعوة الإسلامية قبل ذلك .. من أجل البيت العتيق : « **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا** »(١) .

.. وبذلك تصحح رسالته عليه السلام رسالة إبراهيم التى شوهتها الوثنية المادية المكية فى عهودها المختلفة ، وتعود بها إلى التوحيد ، وتعيد الحج كفريضة من فرائض الله تستهدف التكتل وقوة الترابط فيما بين المؤمنين على أساس من طاعة الله جل شأنه : « **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت : أن لا تشرك بى شيئاً ، وطهر بيتى للطائفين ، والقائمين ، والركع السجود. وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق** »(٢) .

وهكذا : تضمنت سنوات الهجرة أصلا ومبدأ فى سياسة الأعداء ، هو أصل التدرج والأخذ بمبدأ تعدد المراحل فى تحقيق الهدف . إذ لم يكن من الحكمة فى السياسة أن يقدم المسلمون من المدينة للقاء الكفار بمكة وهم غير متفوقين عليهم عدداً وعدة تفوقاً ظاهراً ، وليس لهم أتباع فيها يضمنون على الأقل عدم معارضتهم ، إن لم يضمنوا مؤازرتهم . نعم لاقى المسلمون ببدر وهم قلة المشركين يوم ذاك وهم كثرة ، وانتصروا عليهم . ولكن الفرق بين خروج المسلمين من المدينة إلى بدر للقاء الكفار ،

---

(١) آل عمران : ٩٦ (٢) الحج : ٢٦ - ٢٧

وقدومهم من المدينة إلى مكة للقاء قريش وأنصارها . . يستتبع حتما فرقاً آخر فى الإعداد المادى والاجتماعى والسياسى . وإذن المرونة فى السياسة مع الأعداء قبل إتمام الإعداد والعدة للقضاء عليه ضرورة فى الحفاظ على كيان الأمة ، ولاتخاذ الفرصة المناسبة قبل الكلمة الأخيرة .

ه . . وإن دفعت بالمسلمين — بعد تفوقهم فى القوة — إلى التزام الموقف المتعين الذى لا محيص عنه من وجهة النظر إلى سلامة الأمة وبقائها عزيزة متماسكة . فالمسلمون الذين عارضوا صلح الحديبية . . عارضوه ، لأنهم كانوا يرون : أنه ترك للمشركين الماديين المكيين ، الكلمة يملونها عليهم . والاسلام لا يكون عزيز الجانب ، والدعوة الإسلامية لا يكون طريقها مفتوحاً إلا إذا كانت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .. أى إلا إذا كان المؤمنون هم أصحاب الكلمة الأخيرة وليس أعداؤهم .

من أجل ذلك كان الأمر بفتح مكة . ومن أجل ذلك أيضاً كان فتح مكة بعد أن تم هو : الفيصل فى تاريخ الإسلام بين ذلة المسلمين وعزتهم ، وبين ضعفهم وقوتهم . وأصبح الشعار هو : كلمة الله هى العليا .

جاء الوحى تقريباً فى شهر شوال من السنة التاسعة من الهجرة — بعد فتح مكة فى رمضان من هذه السنة — بإعلان انتهاء عهد الحديبية مع المشركين ، على أن يعطوا مهلة أربعة أشهر يكونون فيها أحراراً : يدبرون فيها أمرهم إن بقوا على الكفر ، ويفكرون فى التوبة والرجوع إلى الله وحده : « **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** (أى أن الله ورسوله قد برئا — أيها المسلمون — مما عاهدتم عليه المشركين ، وإذن أنتم فى حل الآن من اتخاذ موقف آخر نحوهم ، غير الأمان الذى أعطى لهم ، كما جاء فى معاهدة الصلح بالحديبية) . **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** (أى وأنتم أيها المشركون لكم الحرية فى الحركة وفى تدبير الأمر مدة أربعة أشهر منذ الإعلان بانتهاء المعاهدة) **واعلموا أنكم غير**

معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين » (على أن تعلموا .. أنكم — أيها المشركون — لو بقيتم على كفركم ولم تعودوا إلى دائرة الإيمان بالله وحده، وآثرتم الاستمرار فى عداء الدعوة إلى الله .. لا تستطيعون أن تنالوا من دين الله ، لأن الله جلت قدرته لا يغلب أبداً ، وقد وعد المؤمنين بالنصر ، كما وعد الكافرين بالخزى والعار) (١) .

وطلب إلى رسول الله عليه السلام أن يعلن انتهاء العهد فى موسم الحج إذاعة له على نطاق أوسع . فقرأه على رضى الله عنه على حجيج بيت الله الحرام فى شهر ذى الحجة من السنة التاسعة نفسها . وجاء القرآن بذلك فى قول الله تعالى : « **وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر : أن الله برىء من المشركين ورسوله** » (٢) .

وموقف المؤمنين الآن إزاء المشركين بعد إلغاء المعاهدة . أنهم إذا تابوا وعادوا إلى الله وحده كانوا إخواناً لهم فى الإيمان بالله ، وإن تولوا وأعرضوا كان القتال والاعتقال، والأسر ،جزاء من نقض العهد ، وظاهر عليهم أحداً من الأعداء . وجاء تعبير القرآن عن هذا الموقف فى قوله : « **فان تبتم** (أيها المشركون) **فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم : إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الأشهر الحرم** (وهى الأشهر الأربعة التالية لإعلان انتهاء المعاهدة والتى حددت لإعطاء الفرصة للتدبر فى الأمر بين المشركين) **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم** »(٣) . ويعتبر

---

(١) التوبة : ١ — ٢

(٢) التوبة : ٣

(٣) التوبة : ٣ — ٥

هذا الموقف الذى يطلبه القرآن الآن من المسلمين إزاء المشركين بعد فتح مكة ، وإعلان إلغاء معاهدة الحديبية كتصفية للوضع المكى بين المسلمين والمشركين .

والموقف الذى يعتبر مبدأ عاما يحدد علاقة المشركين الماديين ، وكذلك علاقة أهل الكتاب من جانب ، بالمسلمين من جانب آخر هو الذى تقصه الآية الكريمة فى سورة التوبة نفسها ، بعد الآيات السابقة فى قول الله تعالى :

١ – « **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله** (وهم الماديون الملحدون أو المشركون حتى يؤمنوا وذلك على نحو ما جاء : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** »(١)) .

٢ – **ولا يدينون دين الحق** (أى وقاتلوا الذين لا يدينون دين الحق) **من الذين أوتوا الكتاب .. حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** »(٢).

•• فلا يقبل من المشركين أو الماديين الملحدين فى أى عهد : سوى الرجوع إلى الإيمان بالله وحده ، بينما يقبل من أهل الكتاب : الاستسلام . أى لا يخلص هؤلاء وأولئكم من قتال المسلمين إياهم سوى الإيمان بالله من جانب الماديين ، وسوى الاستسلام من جانب أهل الكتاب . وقد طوت الآية الغاية من قتال الماديين المشركين ، اكتفاء بما جاء فى آيات أخرى ، كما لم تعد الأمر بقتال أهل الكتاب اكتفاء بما صرحت به فى أولها فى قوله : « **قاتلوا** » .

***

• ولأهمية أحداث الهجرة وأثر هذه الأحداث على المجتمع الإسلامى فى

---

(١) البقرة : ١٩٣ (٢) التوبة : ٢٩

قيامه ، وقوته ، وعزته ، وعلى الدعوة الإسلامية فى سيادتها وخروجها من شبه الجزيرة إلى كافة أرجاء العالم . . قرر عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فى السنة السابعة عشرة منها — جعل الهجرة بداية لتاريخ جديد ، هو تاريخ الأمة الإسلامية . وبذلك تستكمل الأمة عناصر الشخصية المستقلة لها . كما أن أحداثها التى ارتبطت بأشهر معينة فى سنواتها ستكون مصدر ذكرى للمسلمين ، يستلهمون منها طريقهم فى السياسة ، وفى الوصول إلى القوة والمنعة ، وقبل ذلك .. إلى الترابط والتساند فيما بينهم . . يعرفون للايمان بالله أثره النافذ فى النجاح ، ويقفون على الوسيلة التى تضمن الحماية والنمو له ، ويتعلمون .. كيف ينتقلون من الضعف إلى القوة ، وكيف يأخذون أنفسهم بالتدرج مع أعدائهم إن هم رأوهم أشد منهم قوة وبأساً ، وكيف يصرون على موقفهم الخاص بهـــم إن هم أصبحوا ذوى استطاعة مادية ، وذوى مستوى اجتماعى وسياسى يتيح للآخرين أن يفهموا أهدافهم فى غير لبس .

واستخدام المسلمين للتاريخ الهجرى ليس هو استخدام أيام وشهور وسنوات . وإنما هو إحياء للعوامل التى حركت تاريخ المسلمين فجعلت منهم أمة ، ومجتمعاً ، ودولة ، وجعلت من دعوة الإسلام دعوة عالمية إنسانية كما هى فى موضوعها ومبادئها ، وليست عربية أو قبلية أو قومية ، حسبما كان موطن النداء الأول بها : فى مكة ، وبين قريش .

واختيار شهر المحرم أول شهور السنة فيها ، لأنه شهر العمل الذى يأتى بعد أداء فريضة الحج الذى يتعاهد فيه المسلمون على عرفات . . على المساواة فى الاعتبار والطاعة لله وحده ، والإخلاص فى سلوك طريقه المستقيم . فالدفعة الجماعية الأولى لفريضة الحج فى سبيل الله تقع فى المحرم ، وتستمر إلى ذى الحجة القادم .

وإغفال المسلمين لتاريخ الهجرة هو عامل من عوامل الضياع لاستقلال شخصيتهم ، وفى الوقت ذاته هو عامل من عوامل إلحاق المسلمين بغيرهم

فى التبعية . ولا يقل استخدام المسلمين لتاريخ آخر : فى كتاباتهم ، ومعاملاتهم ، أثراً عليهم فى محو استقلالهم ... عن اتباع أيديولوجية أخرى غير الإسلام .

وقد بدأ أتباع « العلمانية » فى المجتمعات الإسلامية باستخدام تاريخ الميلاد للمسيح عيسى ابن مريم بجانب استخدام التاريخ الهجرى ، كما ابتدأ نقل التشريع الأوروبى بجانب الشريعة الإسلامية ، والمدرسة المدنية بجانب المعهد الدينى الإسلامى ، والفكر الغربى بجانب التعاليم القرآنية ، وآداب المجتمع الأوروبى : فى اللبس ، والأكل ، والشرب ، والعادات . . بجانب تقاليد المجتمع الإسلامى .

وبالتدريج نسى المسلمون استعمال ما لهم ، وتعلقوا بما نقل عن غيرهم .. حتى أصبح الفكر الماركسى اللينينى أو البلشفية أقرب إلى نفوس بعضهم من تعاليم القرآن ، وأصبحت حمايتهم لذلك الفكر تكاد تكون على حساب ما للقرآن وما للمسلمين من تراث خاص بهم ، وأصبح فى بلاد المسلمين جامعة علمانية لها الحول ، بجانب جامعة إسلامية تحيط بها العزلة وتعيش فى فترة الاحتضار ، واستقلت بالأمر المحاكم المدنية وطوت فى ملاقاتها وضع المحاكم الشرعية ... إلخ .

* •• ولم يشأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يؤرخ بتاريخ ميلاد الرسول محمد بن عبد الله عليه السلام — وهو حبيب الله وحبيب المؤمنين جميعاً — لأنه تاريخ شخص مهما كان له من سمو المنزلة ، وليس تاريخ « موضوع » . . أى ليس تاريخ الدعوة إلى الحق الذى هو هداية الله للناس جميعاً . والدعوة إلى الحق هى دعوة إلى مبادىء وليست إلى أشخاص. والوثنية فى نشأتها هى تحول عن المبادىء إلى أشخاص ، ارتبطوا بهذه المبادىء ارتباطاً وثيقاً لأنهم كانوا على صلة بها : إما لنشاط هؤلاء الأشخاص فى سبيلها ، أو لصدفة فى اتصالها بهم .

فإبقاء على دعوة الحق جلية واضحة ، وعلى وحدة الله فى ألوهيته خالصة صافية . . جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه تاريخ الأمة الإسلامية من هجرة رسولها الأكرم عليه السلام : من مكة إلى . . المدينة ، لحماية دين الله وأمان الدعوة إليها ، ولم يجعلها من ميلاده هو عليه الصلاة والسلام .

فهل يعرف المسلمون أثر العلمانية . . اليوم على حياتهم فى التوجيه ، وعلى استقلالهم فى المجتمعات ؟

وهل يدركون : أن الإسلام هو الذى كون مجتمعهم ، وأنه وحده العامل الآن فى سيادتهم على أنفسهم ، وأن تاريخ الهجرة هو عنوان الاستقلال والسيادة لهم ؟

* * *

الفصل السابع

الشباب المسلم المعاصر

بين متناقضات الوضع الاجتماعى ، والتقدم الفنى
فى مصادر الحضارة

* ينشأ الشاب المسلم المعاصر فى بيئة لها أوضاع معينة ، وتحكمها عادات وتقاليد ، ومقاييس أخلاقية خاصة . وأهمها : ترابط الأسرة وسلطة الأب فى توجيهها ، والالتزام الأدبى الذى يلتزم به الأخوة والأخوات حيال بعضهم بعضاً ، وحيال والديهم كذلك .

لم تتفكك الأسرة بعد ، فى المجتمعات الإسلامية . ولم يزل الشعور بالمسئولية عن حياة أفرادها فى معيشتهم شعوراً جماعياً ، وإن كان يبرز الولد الذكر فى حمل أعبائها — بعد الوالد — كوارث لقوامته وسلطته فى الأسرة . والمسئولية المتبادلة فى الأسرة وسلطة الوالدين فيها ، هما مصدرا التعاون ، وقبول النصح والتوجيه فى تحديد مواقف أفرادها ، وفى التزام ما يقومون به من تصرفات . ومن هنا كانت المشورة المتبادلة بين الوالدين والأولاد فى شئون الزواج ، ومباشرة السعى من أجل المعيشة ، وفى الإقامة فى السكن ، وفى كل ما هو أمر رئيسى من شأنه أن يؤثر على وضع حياة الأسرة ، ككل .

ودين المجتمعات الإسلامية — وهو الاسلام — والتقاليد السليمة القائمة عليه توصى بترابط الأسرة كوحدة أساسية فى بناء المجتمع ، وبرعاية أفرادها بعضهم لبعض : فى المعاملة ، والشورى ، والمعيشة . إذ يقول الله تعالى : « **واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ،**

وبذى القربى .. »(١) . . ويقول : « **وآت ذا القربى حقه** »(٢) . . ويجعل العناية بأمر الأسرة فى قوة الترابط بين أفرادها فى مستوى عبادة الله وحده، وطرح الوثنية المادية .

والترابط والتضامن فى الأسرة ليس تخلفاً فى الإنسانية . لأن قوة المجتمع تنبثق أولا من قوة العصبية فى الأسرة ، ولأن حسن التوجيه عامة فى الأمة كذلك هو نتيجة لحسن التوجيه فى الأسرة ذاتها . ولا يمكن أن يكون هناك ترابط قوى فى الأسرة ، ولا حسن توجيه فيها إلا إذا كان هناك تبادل فى المشورة والرعاية فيها ، وإلا إذا كانت هناك مسئولية أسرية تنهض بقوة الترابط وحسن التوجيه .

* وحسن التوجيه فى الأسرة المسلمة يقوم على أساس من الاسلام فى مبادئه الأخلاقية والسلوكية . وأهم هذه المبادىء : الإيمان بالقيم الروحية . وهى القيم الإنسانية العليا .. هى قيم : التعاون ، والتضامن ، والتكافل بين القوى والضعيف ، والثرى ومن ليس بذى ثراء ، والعالم والجاهل ، وسليم البنية وصاحب العجز أو العاهة ، والكبير والصغير ، وصاحب الجاه ومن لا جاه له .. هى القيم الإنسانية التى تعلو فوق الأنانية ، وتمثل مصلحة الأمة بأملها .. هى القيم التى تجنب ارتكاب الفحشاء ، والمنكر ، والبغى .. هى التى تدعو إلى صفاء النفوس وإضعاف الحقد فيها ، دعوة تؤسس على سلوك إيجابى ، وموقف إيجابى : من المتفوق لسبب من أسباب القوة .. إزاء من هو أضعف فيها .

* والأسرة المسلمة المعاصرة لم تزل على ذكر بالإيمان ببعض القيم الإسلامية . أى لم تزل تحتفظ ببقايا للروحية الاسلامية فى اتجاهها والتوجيه ، وإن كان صراع الفكر الدخيل قد نال من هذه الروحية ، وينال منها كل يوم باسم التقدمية مرة ، والحضارة والمدنية مرة أخرى .

---

(١) النساء : ٣٦ (٢) الإسراء : ٢٦

ولكن لقوة هذا الصراع الفكرى الدخيل : فى دفعه وتكتل العوامل الأجنبية والمحلية على إقحامه فى المجتمعات الإسلامية من جانب ، ولضعف العرض والتوضيح للقيم الروحية الإسلامية من جانب العارضين والموضحين ، والوقوف بنماذجها عند الماضى وحده من جانب آخر .. لهذا ، وذاك : تخلخلت هذه القيم فى صلاحيتها لحياة الانسان المعاصر .

ولا ترجع قوة الفكر الدخيل فى صراعه ضد مبادىء الروحية الإسلامية ، إلى قيمته فى موضوعيته . وإنما إلى الإغراء فى عرضه ، وإلى استخدام الوسائل الحضارية الفنية فى شيوعه وإذاعته : كالنقل عن طريق الإرسال فى الراديو والتليفزيون ، وعن طريق النشر فى الصحف والدوريات . ثم إلى استجابة أصحاب القوى المحلية المختلفة من : فكرية ، وإعلامية ، وفنية .. إلى الإسهام فى ترويجه بصورة أو بأخرى بأجر مغر ، بجانب العمل على إظهار الروحية الإسلامية ، وإظهار الداعيين لها أو المنتسبين إليها ، فى مظهر الضعيف الذى لا يقوى على الحياة ، فضلا عن المواجهة لهذا الدخيل .

وأصبحت لذلك الأسرة المسلمة المعاصرة تتأرجح بين متناقضين :

١ ـ بين فكر أصيل موروث ، يهتز بمزاحمة غيره له ، وهو فكر الروحية الإسلامية وقيمها .

٢ ـ وفكر دخيل يطرق أبواب نفوس الشباب فى عنف ، وفى استعلاء القوى ، ومغالطة المسيطر ، وهو الفكر المادى الذى يدعو إلى إشباع الذات ، وتفكيك روابط الأسرة ، وسيطرة الأنانية ووسائلها فى السلوك من : الوصولية ، والمنفعية ، والانتهازية ، والنفاق ، وإنكار القيم الروحية ، والتحلل مما هو دينى وأخلاقى ، بدعاوى شتى ، بجانب العمل على إحلال : اللامبالاة محل المسئولية ، والفوضى محل النظام ، والتنكر للسلطة فى الأسرة بدل القوامة والتوجيه فيها .

* وبين رواسب الروحية الإسلامية وبقاياها فى الأسرة المسلمة المعاصرة، وطغيان الفكر المادى الدخيل عليها فى الإغراء والتلبيس . . ينشأ الشباب المسلم فى مجتمعاتنا الحاضرة . والشباب المسلم فى مرحلة المراهقة هو بحكم تطوره متأرجح بين الطفولة السابقة ومرحلة الرشد اللاحقة . ويتسم مظهر تفكيره وسلوكه بالتردد والانجذاب : إلى أدنى فى طفولته مرة ، وإلى أعلى نحو رشده مرة أخرى . فإذا أضيف إلى هذا المظهر فى تطوره — وهومظهر التأرجح والتردد — عامل التناقض بين تقاليد الأسرة الباقية ، والجديد الطارىء عليها مما له قوة الإغراء والتلبيس .. فإن الشباب الذى يحيط به هذا التناقض يكون أكثر ترددا وتأرجحاً ، عن شباب آخر يعيش فى جو أكثر ملاءمة ، بعضه لبعض ولوكان جو المادية فى توجيهها وتأثيرها .

وإذا كان للتقاليد فى ترسبها فى الأسرة المسلمة المعاصرة أثر فى الشد والجذب ، فإن للفكر والتوجيه المادى والانحلالى الطارىء أثر أكثر عنفاً وصلابة فى شده وجاذبيته . لأنه يتصل برغبات البدن وشهوات النفس وغرائزه . وهى بحكم الجانب الحيوانى فى الإنسان تمارس نشاطها مبكرة ، عن إدراك العقل ومصدر الروحية فيه . ومن أجل ذلك نيط بالتربية تحقيق التوازن بين القوى الغرزية والأخرى النفسية والعقلية فى الإنسان. والتربية — ومن أهم عواملها: البيئة وجو التنشئة—لاتحقق غايتها من هذا التوازن إلا إذا ساد الانسجام بين عواملها من : الوراثة، والبيئة ، والمدرسة. فاذا اختل هذا الانسجام على نحو ما هو هنا الآن فى المجتمعات الإسلامية بسبب التناقض بين ما يسمى بالقديم والجديد ، أو بين رواسب الروحية واتجاه المادية الانحلالية الوافدة .. فإن فاعلية التربية تكون ضعيفة أو عديمة الأثر . ويبقى الشباب فى تأرجحه وفى تناقضه .. إلى أن يتغلب عليه أحد الاتجاهين. وغالباً يتغلب اتجاه المادية الانحلالية . لأن الأقوى — لا بموضوعه — ولكن بدفعه ووسائل الترغيب فيه .

* هل سيحول المجتمع الإسلامى المعاصر — أى مجتمع — دون طغيان التوجيه المادى بين أفراده ؟ . على معنى هل سيحول دون تلك الموجة

الانحلالية ، والدافعة إلى : عدم المسئولية ، واللامبالاة ، والأنانيةالمصاحبة لهذا التوجه المادى ؟ .

هل سيعيد المجتمع الإسلامى — أى مجتمع إسلامى — النظر فى عرض الروحية الإسلامية ، بحيث تكون أكثر فاعلية وتأثيراً على نفوس الشباب المسلم المعاصر ؟ . على معنى : هل ستجلى مبادىء الاسلام فى عرضهالتكون أكثر واقعية فى حلها للمشاكل التى تواجهه ؟ .

إن المجتمعات الإسلامية لم تزل موزعة على نظامى الحكم : على أساس من الفكر الغربى وحده . وبذلك لم تتخل بعد عن التبعية للأجنبي ، رغم وثائق الاستقلال وممارسة بعض مظاهره : من الانتقال من متبوع إلى آخر : فى نظام حكمه وأيديولوجيته . وليس من بين هذه المجتمعات حتى الآنماراجع الاسلام فى صلاحيته لسياسه المجتمع ، وضبط سلوك الأفراد فيه ، مراجعة جدية بناءة . حتى ذلك المجتمع فى آسيا الذى أعلن منذ ربع قرن تقريباً بعد جهاد مرير طال أمده : قيامه على أساس : من الفكر الإسلامى وحده ، وهو المجتمع الباكستانى . بل صار اليوم إلى مجتمع علمانىوماركسى فىالشرق والغرب على السواء .

والمجتمعات الإسلامية المعاصرة هى فى سياستها أقرب إلى ترك مقاليد الأمور فيها إلى « الصدفة » و « ما تأتى به الرياح » منه إلى أن تكون مستندة فيها إلى إرادة ومنهج دقيق ، رغم كثرة الحديث فى بعضها عن : « العزم » و« الخطة » .. وما إلى غير ذلك مما يلفت النظر ، دون أن يكون له مدلول فى تغيير مجرى الحياة ، وفى استهداف استقلال يعتمد على مقومات التاريخ والشخصية فى أى منها .

ومعنى : ترك مقاليد الأمور فى المجتمع إلى الصدفة أكثر منه إلى الارادة .. هو أن طغيان الموجة المادية الانحلالية الوافدة سيستمر فىالزيادة ، وأن أجهزة الإعلام المختلفة فيه ستكون أكثر « قدرية » من أية أجهزة

أخرى فى الدولة كالتعليم مثلا . وبهذا يزداد الضغط على انحسار الروحية الاسلامية ، فلا تستطيع أن تكون عاملا موجها بعد حين آخر من الزمن .
ويبقى الشباب المسلم المعاصر فى حيرته . وحيرته هذه لاحدود لها . وليس بغريب عليه بعد ذلك : أن يكون هذا الشباب « فوضوياً » وعديم المبالاة والمسئولية ، أو يكون « ثائراً » ومخرباً وهادماً ، دون أن تكون لديه استطاعة وطاقة على البناء والتعمير من أجل مجتمع سليم .

ه وينادى كثير من الكتاب والمفكرين فى إصلاح الشباب المسلم المعاصر .. بالرجوع إلى الاسلام . وهذا سليم كمبدأ .

ولكن كيف الرجوع إلى الاسلام والقيادة السياسية فى المجتمع تخشى ، أو لا تريد أن ترجع إلى الاسلام فى نظام الحكم ؟ .

وكيف الرجوع إلى الاسلام والحاملون لريادته يفهمون الاسلام من كتب تكاد صلاحيتها تكون قاصرة عن أن تعالج مشاكل المجتمعات المعاصرة ، وأحداثها ، ومواجهة فلسفاتها ؟ .

وكيف الرجوع إلى الاسلام وليس هناك قوة معنوية عامة تحمل على طرق أبواب الاسلام ، وتلزم القيادة السياسية فى المجتمع بالأخذ بمبادئه فى التوجيه والسلوك ، كما تلزمها بخلق جيل يفهم الاسلام من كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، قبل التعرف عليه من كتب وضعت لعهود انتهت مشاكلها وأوضاعها ؟ .

إن القابلية للتبعية السياسية فى شعوب المجتمعات الإسلامية ما زالت ظاهرة واضحة فيها ، رغم وثائق الاستقلال السياسى لها . وإن القابلية للتبعية الفكرية فيها تكاد تكون أمراً محبباً ، وليس أصلا فقط من أصول مجرى الحياة فيها . وهذه القابلية للتبعية الفكرية ليست فقط لذلك الجيل الذى تخرج « علمانيا » فى مدارس الحكومات النظامية فى هذه المجتمعات . وإنما فريق كبير من المثقفين ثقافة إسلامية تقليدية ومن الذين كانوا يحفظون القرآن يوماً ما . ينافس جيل العلمانية فى التودد إلى الفكر الدخيل ،

ويحرص على الانتساب إليه ، قبل الانتساب إلى تلك الثقافة الإسلامية التى درسها أولا .

والقابلية للتبعية السياسية والفكرية فى أى مجتمع من شأنها أن تحول دون تحول المجتمع فى يسر إلى « الأصالة » التى يريد أن يلتزمها فى : منهج التفكير ، والعمل السياسى معاً .

* ولكن ليس معنى ذلك : اليأس من إصلاح الشباب المسلم المعاصر على أساس من توجيه الاسلام ومبادئه . وإنما هنالك دون تحقيق ذلك صعوبات عديدة ، إن لم تتيسر دعوة مؤمنة رائدة ، يتهيأ لها من وسائل النشر والإعلام ، بالإضافة إلى عرض قوى للاسلام : فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة .. ما يجعلها تأخذ طريقها فى قوة إلى نفوس الشباب فى هذا الجيل الحاضر . ولا بديل عن الاسلام فى الحفاظ على استقلال هذه المجتمعات . وأى بديل الآن يظن أنه كاف فى سياسة الحكم والتوجيه فيها ، هو على سبيل القطع والتأكيد بداية لتبعية . . تنتهى حتما إلى ذوبان لشخصيات هذه المجتمعات ، وإلى ضياع مقوماتها وهى : الخصوبة فى النسل ، ويسر الاعتقاد الذى يتمثل فى الالتفاف حول : لاإله إلا الله ، محمد رسول الله ، بدون وساطة وسيط ، أو سيادة حكم أو عصابة ، وأخيراً تكامل اقتصادى قل أن يكون فى غير أرض المسلمين .

إن المجتمعات الإسلامية المعاصرة مهددة بخطر الضياع : فى استقلالها ، وفى إيمانها ، وفى اقتصادها . وإن الشباب المسلم هو فى حيرة الآن ، ومهدد بالانتقال من هذه الحيرة إلى تبعية فكرية وسياسية ، لاخلاص له منها . والمسئولون عن هذه المجتمعات يعيشون فى تصورات هى أقرب إلى الأحلام التى مبعثها : اللاشعور فى الانسان .

* وإن رسالة علماء الدين نحو توجيه الشباب ونحو توجيه الانسان عامة هى : رسالة الدين نفسه ، هى رسالة الاسلام ، إن كان إيمانهم بهذه الرسالة

إيماناً قوياً وواضحاً . وأمارة قوة إيمانهم برسالة الإسلام : أن يتمثل الإسلام في سلوكهم وتصرفاتهم . وأمارة وضوحه عندهم أن يكون تعبيرهم عنه تعبيراً مصوراً لأهداف الرسالة الإسلامية ، وهي أهداف تتصل بمستوى الانسان كإنسان .

وعلماء الدين إذن – باعتبار انتسابهم إلى الدين نفسه ، أي باعتبارهم حملة لرسالته – يجب أن يكونوا قدوة في السلوك الإنساني ، وقدوة في عرض الإسلام وإقناع الناس به . وهنا يكون دورهم إيجابياً في توجيه الشباب – وغير الشباب ، من الانسان – وهنا تكون حاجة المجتمع اليهم ماسة ، بقدر حاجة الانسان إلى الدين ، وإلى دين : هو الاسلام .

والحديث إذن يجب أن ينتقل بنا إلى دور الاسلام في توجيه الشباب ، إذ قيمة علمائه ، لو كانوا معبرين عنه حقاً ، في قيمته هو نفسه :

كيف ينقل الاسلام الشباب من مرحلة . . إلى أخرى فوقها ؟ :

ه والشباب ذكراً أو أنثى هو من في سن المراهقة . وغالباً من هم في سن الرابعة عشرة . . إلى الثامنة عشرة . والشاب في هذه السن له ماض في تطوره – وهو ماضي الطفولة ، لم يتخلص منه بعد – وله ميل وأمل معاً في التخلص من هذا الماضي والانتقال منه . . إلى مرحلة الإنسان الناضج ، وهو الإنسان صاحب المسئولية .

والشاب إذن في هذه السن – سن المراهقة – يسعى للتحرر من ماض حدد تفكيره وسلوكه تحديداً خاصاً ، ليدخل في حلقة أخرى تختلف عن هذا الماضي اختلافاً بيناً في خصائص التفكير والسلوك معاً :

فالإنسان الطفل قبل المراهقة هو الانسان الأناني . أما الانسان الناضج ، أو الانسان بعد فترة المراهقة فهو انسان المجتمع . إذ طفولة الانسان هي أنانيته ، ورشد الانسان ونضجه هو إدراكه للمجتمع .

وتتميز الأنانية — كظاهرة مسيطرة على الإنسان كما فى مرحلة الطفولة— بأن يكون تفكير الإنسان موجهاً نحو ذات الإنسان التى هى : «أنا »وحدها: فينبثق تفكير الإنسان من الذات وحدها . . عائداً إلى الذات وحدها أيضاً . وعلى هذا النحو : تصرفه ينبثق من رغبات الذات وحدها . . لتحقيق هذه الرغبات التى للذات وحدها أيضاً . ومعنى ذلك : أن مصدر التفكير ، وموضوع التفكير واحد : وهو الذات ، أو « أنا » ، وأن دوافع التصرف والسلوك هى: نفس الغايات والأهداف منه . وهى : الذات ، أو « أنا » . والإنسان الأنانى — أو الإنسان فى مرحلة الطفولة — هو الذى لا يعرف فى تفكيره وتصرفه ذاتاً أخرى غير نفسه ، أى لا يعرف مجتمعاً إنسانياً يتكون منه . . ومن غيره .

وإذا لم يعرف الانسان مجتمعا إنسانياً يتكون منه ومن غيره ، فلا يفرق فى التفكير بين صواب . . وخطأ ، ولا بين حسن . . وقبيح فى السلوك والتصرف . كما لا يدرك حدوداً لسلوكه وتصرفه . وبالتالى إذا لم يعرف مجتمعاً يتمثل معناه فى نفسه ، فلا يدرك معنى : الواجبات . . والحقوق ، فضلا عن أن يفرق بين ما هو واجب عليه . . وحق له . لأن الواجبات والحقوق هى : الحدود لحياة فرد مع فرد ، أى هى الحدود للمجتمع . وبالتالى أيضاً لا يدرك « حرمة » لنفسه . . ولا « حرمة »لغيره . لأن ادراك معنى « الحرمة » للذات . . أوللغير ، يأتى بالتبع لإدراك الواجبات والحقوق، ولإدراك المجتمع نفسه .

والإنسان الطفل أو الأنانى لا يعرف حلالا . . وحراماً . وإنما يعرف : أن الأمر كله مباح ، ومباح لنفسه وحده : لا يعرف اعتداء على حرمة الغير : فى ماله ، فيدرك معنى الغصب والسرقة مثلا .ولا يعرف اعتداءعلى حرمة الغير : فى عرضه ، فيدرك معنى انتهاك العرض بالقول أو الفعل . ولا يعرف اعتداء على حرمة الغير : فى إبداء الرأى والاعتقاد ، فيدرك معنى الاستخفاف بحقه فى إبداء الرأى والاعتقاد .

ولذا –لأنه لا يدرك إلا نفسه ، ولا يسعى إلا لتحصيل رغبات نفسه– يكون شديد الحساسية ، عندما يتعرض له الغير ، كما يكون شديد الجرأة فى انتهاك حق الغير فى الحياة معه ، عندما تستبد به رغبة من الرغبات . وتبدو شدة حساسيته فى : سرعة بكائه ، والاستعطاف ، والإلحاح فى الرجاء ، إن شعر بأذى سيلحقه أو بفوات شىء رغب فى الحصول عليه . وتبدو جرأته الشديدة فى انتهاك حق الغير فى الحياة معه ، فى : عدم الاكتراث به ، وعدم الاهتمام بشكوى الغير منه ، ومن تصرفه . وربما يتحول عدم اكتراثه بالغير ، وعدم اهتمامه بشكواه : إلى السخرية منه ، بالقول ، أو بالفعل ، أو بهما معاً .

وهذا الذى ينطبق على الإنسان الطفل فى المجتمع المتطور هو بعينه الذى ينطبق على الإنسان الذى تجاوز مرحلة المراهقة فى القبائل البدائية المختلفة . وكلاهما قريب من الحيوان : فى درجته الأخيرة لتطوره . وبين الإنسان فى مرحلة الطفولة فى المجتمع الرشيد من جانب ، والإنسان المتكامل فى النمو الجسمى فى القبيلة البدائية ، والحيوان المتطور فى الفصيلة الحيوانية الراقية من جانب آخر – ظواهر مشتركة ، أهمها : الأنانية ، والتصرف الأنانى ، وعدم إدراك معنى المجتمع .

وبحكم وجود الإنسان الطفل فى المجتمع المتطور يتطلع هذا الإنسان الطفل إلى التطور . أى يتطلع إلى الصيرورة التى وصل إليها الإنسان الكبير ، أو الإنسان الرشيد فى هذا المجتمع . ومن هنا كانت ميوعة المراهق ، وذبذبته بين مرحلتين متقابلتين من مراحل تطور الإنسان : التى هى الطفولة . . والمراهقة . . والرشد .

والإنسان الرشيد فى المجتمع المتطور هو – كما ذكرنا – الإنسان المدرك للمجتمع ، الذى يفصل بين نفسه وبين غيره ؛ ويعترف بحدود نفسه وحدود غيره فى : التملك . . والتصرف . . والسلوك ، ويقر بعلاقة التبادل فى المنفعة ، والعواطف ، وتقدير القيم ، ومقاييس الحياة ، بينه وبين غيره .

وإدراك الإنسان لمعنى المجتمع هو أخص خصيصة لرشد الإنسان ، الذى تقوم عليه جميع الالتزامات ، سواء : التزامات الإنسان نحو نفسه ، أو نحو غيره . وإدراك الإنسان للمجتمع يبدأ أولا بإدراك الأسرة : بإدراك علاقة الزوجية ، وعلاقة البنوة ، وعلاقة الأبوة والأمومة ، وعلاقة أولى الأرحام .ومعنى إدراك ذلك : إدراك الالتزامات الناشئة عنه ، وهو التزامات تؤدى . . قبل أن تؤخذ . وإذا نما معنى إدراك الأسرة فى تفكير الإنسان الصائر إلى الرشد ، فشمل الجوار القريب والبعيد ، ثم شمل التجانس فى الغايات والأهداف ، بجانب التجانس فى الدم والقرب فى المكان — عندئذ يكون الإنسان قد وصل إلى رشده فى التفكير والتصور . وإذا أدى ماعليه بعد ذلك من التزامات نحو غيره أداء يعبر عن تفكيره وتصوره لهذا الغير ، على نحو ما أشرنا — عندئذ يكون الانسان قد وصل إلى رشده فى السلوك والتصور كذلك . وعندئذ يكون المجتمع الرشيد قد أعلن عن قيام نفسه . وإذن المجتمع الإنسانى ظاهرة متأخرة فى الوجود الواقعى عن وجـــود الانسان كفرد .

* ورسالة الاسلام هى رسالة المجتمع الإنسانى الرشيد . هى رسالة إبلاغ الفرد وتوصيله الى الرشد الإنسانى . هى رسالة دفع الانسان إلى إدراك المجتمع ودفعه كذلك الى أداء ماعليه من التزامات نحو هذا المجتمع ، وهى التزامات تؤدى نحو الغير بعد الاعتراف به وبوجوده .

رسالة الاسلام إذن هى رسالة تصور وأداء معاً . أما فى جانب التصور فقد أوحت « بالوحدة » : وطالبت بالاعتقاد بها فى جانب المعبودات وطالبت بالسعى إليها فى علاقة الفرد بغيره . « **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الهكم إله واحد. فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** »(١) « **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** »(٢) . وما أساس عداوة الفرد للفرد إلا طفولة الإنسان أو بدائيته ، لأنها تكمن فيها الفردية والأنانية .

---

(١) الكهف : ١١٠

(٢) آل عمران : ١٠٣

هذه الوحدة الصريحة التى طالبت بها رسالة الاسلام فى الاعتقاد فى جانب المعبود ، تساويها « الأخوة » التى امتن بها الوحى الإلهى على المجتمع الاسلامى عند قيامه . وهى أخوة فى الاعتقاد.. وأخوة فى المثل وتقييم الحياة الإنسانية. والمثل التى آخت بها رسالة الاسلام بين المسلمين.. هى مثل المستوى الانسانى الرشيد .. مثل الانسان المتطور ، والمجتمع الإنسانى الذى قام وأعلن عن وجوده . ولا يقوم مجتمع ويعلن عن وجوده ، إلا إذا توفر الرشد الإنسانى لأفراده . هى مثل لحفظ علاقات المودة . . والتعاون . . وتبادل العواطف والأحاسيس بين الأفراد . . تلك العلاقات التى لو قامت وبقيت لكانت الأخوة فى المجتمع قائمة ، ولكانت عندئذ أشبه بالوحدة فى دائرة المعبود .

وهنا كانت الالتزامات التى فرضتها هذه الرسالة ، وهى التى عرفت فى هذه الرسالة : باسم الواجبات والفرائض . وهى التزامات تؤدى أكثر ، مما تؤخذ . وهى إذا بدت قيمتها منقسمة بين ما لله وما للغير – وهو المجتمع – فإنها فى نهاية أمرها تعود جميعها إلى علاقة الفرد بغيره فى المجتمع الاسلامى. لأن الله المعبود الواحد غنى عن العالمين .

ولأن رسالة الإسلام تقوم على جانبى التصور والالتزامات معاً – زاوجت فى القرآن الكريم دوماً ، بين الإيمان ، والعمل الصالح . . « **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا** » (١) . . « **إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** »(٢) . . « **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم . تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم** »(٣) « **والعصر . إن الانسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر** »(٤) . والإيمان هو الإيمان بوحدة المعبود والعمل الصالح هو العمل لخير المجتمع ، أى لصالح العلاقات بين الفرد وغيره . وهو لايكون لصالح هذه العلاقات إلا إذا كان باعثه إدراك الفرد لغيره وإقراره بحقه فى الوجود والحياة معه .

---

(١) الكهف : ١٠٧ (٢) الفرقان : ٧٠
(٣) يونس : ٩ (٤) سورة العصر

إن الوحدة التى نشدها الاسلام فى عبادة الله ، جعلها دافعاً قوياً لبقاء الأخوة التى نشدها للمجتمع الاسلامى . ولو أن الوحدة بمعناها الكامل كان يمكن أن تتحقق بين أفراد البشر لكانت مطلوب الاسلام للمجتمع الإسلامى من الوحدة ، كما كانت مطلوبة فى جانب المعبود وهو الله جل جلاله .

وإذا كانت رسالة الاسلام هى رسالة قيام المجتمع الإنسانى . . هى رسالة رشيد الانسان ، فحاجة الشباب وهو فى سن المراهقة — سن الميوعة ، والتردد ، فى الاتجاه والخطوات — إلى الاسلام هى حاجته إلى المعين له على أن يتخلص من ماض يجذبه وهو ماض الطفولة رغب فى التخلص منه .. وهى حاجته أيضاً إلى المعين له أيضاً ، على أن ينتقل . . إلى غاية يجب أن ينتقل إليها ، بحكم ما فيه من استعداد للانتقال والتطور .

حاجة الشباب إلى رسالة الاسلام : هى حاجته الى التحرر والتخلص . . هى حاجته إلى المعين والمساعد على أن يكون إنساناً ، وليس أن يتردى من جديد . . إلى الطفولة . . والبدائية . . والحيوانية : سواء .

الاسلام والتربية الحديثة :

* وربما يقال ، إن التربية السليمة التى تقوم على وعى ناضج لخصائص الانسان النفسية ، ويقظة سليمة لأهداف الانسان فى الحياة ، وهى إقامة مجتمع سليم متوازن ، تقل فيه البغضاء وروح الحقد — والبغضاء والحقد كلاهما مصدر الشرور والفساد ، والفرقة والانفرادية ، والبدائية ، والحيوانية — ربما يقال : إن مثل هذا التربية كفيلة بإبلاغ الإنسان إلى مستوى الرشد الإنسانى وكفيلة بالتالى بتحقيق قيام هذا المجتمع ، ولا حاجة معها عندئذ إلى إسلام . فضلا عن حاجتها إلى دين آخر . بل الدين ربما يكون معوقاً لأنه كان لما مضى . وما مضى كثير منه لايصلح فى حاضر الإنسانية ، كما هو منطق : المادية الإلحادية .. أى منطق دنيوى فى واقعيته .

ولكن من الذى يكشف عن خصائص الانسان النفسية ؟

ومن الذى يحدد أهداف الإنسان فى الحياة ؟

ومن الذى يخطط المجتمع السليم المتوازن ؟

إنه الإنسان ! !

إنسان أى شعب ؟

إنسان أية بيئة ؟

إنسان أية مدرسة وثقافة ؟ .

إنه الإنسان المحدد ! .. الإنسان المحدد بوراثته ، وبيئته ، وبمدرسته وثقافته . إنه الإنسان ، الأبيض .. أو الأسود .. أو الأصفر . إنه الإنسان الشرقى أو الغربى . إنه الإنسان الذى يستسيغ لحم الخنزير .. أو ذلك الذى لايستسيغه . إنه الانسان الذى يخترع ليسيطر على غيره ، أو ليهلك غيره .. أو ذلك الانسان المتخلف الذى يستسلم للخرافة ، أو ما يشبه الخرافة .

أى إنسان إذن يحدد خصائص الإنسان النفسية . ويحدد أهداف الإنسان فى الحياة تحديداً سليما صالحاً لكل إنسان ، ولكل بيئة ، ولكل وراثة ؟

هذا الانسان لم يخلق بعد . لأنه الانسان المطلق . والانسان الذى يعيش بيننا — ونعيش معه — هو الانسان المحدود ، الناقص لمحدوديته .

إن الله الذى أوحى برسالة الاسلام هو اله العالمين جميعاً ، هو اله الناس كافة . هو الموجود المطلق الذى لاتحده حدود : الوراثة ، والبيئة ، والمدرسة . ورسالته لذلك : هى رسالة للبشر جميعاً . وآية أنها للبشر جميعاً أنها — بعد الاعتقاد بوحدة المعبود — خطوط عامة للالتزامات التى يجب أن تؤدى .. أكثر مما تؤخذ، لصالح العلاقات بين الأفراد، كى تبقى العلاقات بينهم قوية متماسكة .

أما الانسان فهو إنسان : هوى .. وحكمة ، وسيظل إنسان هوى وحكمة. لأنه وليد : الوراثة ، والبيئة ، والمدرسة الخاصة ، والعادات والتقاليد

المختلفة . ولذا لايصلح هذا الانسان لتخطيط معالم الحكمة كاملة . ومعالم الحكمة فى الانسان هى مستوى الإنسانية الخالص ، وهو ما يسمى بالرشد فى محيطه . وكل ما يطلب من الانسان إذن عن طريق رسالة الدين هو : أن تتغلب حكمته على هواه ، أى يتغلب فيه الجانب الإنسانى على الجانب الآخر فيه ، الذى تأثر ببيئته ، وتقاليده ، ووراثته .

عدم الانفصالية فى التوجيه :

* ولكن رسالة الاسلام — وهى رسالة تحديد المستوى الإنسانى الرفيع ، ورسالة دفع الشباب إليه — لاتنجح فى دفع الشباب إلى ذلك المستوى عن طريق إيمان عالم الدين بها ، وتمثله إياها فى نفسه وفى تصرفه فحسب ، بل لابد مع ذلك : ألا تكون هناك « انفصالية » فى توجيه المجتمع . فلا يكون فى توجيهه من جانب آخر ما ينقض الإيمان بالدين . . أو يستخف بالالتزامات التى أوجبها الدين على الأفراد .. لايكون هناك مع الدين اختلاف : فى تربية المدرسة . . أو فى توجيه المنزل . . أو فيما تعرضه الصحافة . . أو فيما يعرضة كتاب المكتبة .

ليس الاسلام طقوساً ، ولا حرفة لمحترف . إنه — كما سبق — رسالة إيمان وعمل معاً . إيمان بوحدة الله ، وعمل من أجل أخوة الانسان مع الانسان ، إنه رسالة المجتمع والتعاون فيه ، وليس رسالة للفرقة والانفرادية . جاء الاسلام لقيام المجتمع الإنسانى بكل معنى هذه الكلمة ، ولذا ليس فى الاسلام مكان للانفرادية ، وإن أحل فى تعاليمه : الفرد ، كعضو فى المجتمع . . منزلة البانى الحر الكريم .

إن توجية المادية الوجودية ، وتوجيه واقعية « ديوى » للشباب . : توجية للانفرادية ، ودعوة إلى البقاء فى الميوعة والذبذبة .

وأخيراً : إن الاسلام كدين يعتمد فى توجيهه على دفع الضمير . . أكثر مما يعتمد على القوة الخارجة . وأغلب المجتمعات المادية الإلحادية تعتمد

على القوة الخارجة فى بقاء مجتمعها متماسكا ، أكثر مما تعتمد فى ذلك على الدفع الذاتى . أما المجتمعات الحديثة الأخرى كالمجتمع الأمريكى فليست مجتمعات بالمعنى الصحيح . هى انفرادية فى صورة مجتمع . وأما المجتمعات الاشتراكية البلشفية — والماركسية اللينينية — فهى مجتمعات ميكانيكية تنعدم فيها الذات والروح معاً .

هل نريد تخليص شبابنا من الميوعة ؟ إن كنا نريد ذلك فعلينا بتوجيه الاسلام من : فاهم له .. ومؤمن به ، معاً .

الفصل الثامن

الأزهر فى حاضره بعد أمسه

١ – الأزهر فى أمسه .. إلى بداية القرن العشرين :

• قام الأزهر كمسجد للشعائر الدينية فى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) فى عهد الفاطميين ، ثم أضاف إلى رسالة الشعائر التى تؤدى فيه .. رسالة الدعوه الإسلامية كمؤسسة للتعليم الإسلامى .

وعنى فى أول أمر هذه الرسالة الثانية باتجاه المذهب الفاطمى ،والشيعة على العموم(١) .

ثم تحول فى عهد الأيوبيين – عندما وضع صلاح الدين الأيوبى نهاية الدولة الفاطمية ، واستقل بمصر(٢) – إلى العناية باتجاه المذهب السنى ، ولم يزل يعنى به حتى الآن . ومن أجل ذلك تعتبر القاهرة مركزاً للاتجاه السنى فى العالم الإسلامى .

وعندما تم بناؤه حبست عليه من المتبرعين الخيرين بعض مصادر الثروة للإنفاق على شئون التعليم فيه – سواء ما يتعلق بالمدرسين أو بالطلاب – ليظل بعيداً عن الإنفاق الحكومى ، وبالتالىبعيداً عن سياسة الحكومة القائمة ، وبذلك يكون مستقلا ويكون علماؤه مستقلين فيما يعلنونه من رأى ينسبونه إلى الإسلام ، أو فيما يعلنونه من موقف يتخذونه إزاء حدث من الأحداث فى أى مجتمع من المجتمعات الإسلامية .

---

(١) من عام ٣٦١ حتى ٥٦٧ هـ (٩٧٢ – ١١٧١) .
(٢) من عام ٥٦٧ حتى ٦٤٨ هـ (١١٧١– ١٢٥٠) .

استقلال الأزهر هو ظاهرة الأمس :

والأزهر – لقيام التعليم فيه على أساس من الدين – ليس كأية مؤسسة تعليمية أخرى تنشد الثقافة الإنسانية ، فالمعرفة التى تلقى فيه معرفة دينية ، يجب الاحتياط فى التعبير عنها ، وفى توثيق مصادرها . ولذا كانت أهم فروع المعرفة فيه : الفقه ، وتفسير القرآن ، والحديث ، وعلم التوحيد ، وما يساعد هذه الدراسات من علوم أخرى ، وهى علوم اللغة وأصول الفقه ، والسيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامى .

ومن وسائل الاحتياط فى التعبير عن الرأى لعلمائه وضمان استقلال رأيهم وعدم خضوعه لميل سياسى معين تمليه جهة لها نفوذ عليه ، كان هنا تمويل الحركة التعليمية فيه من مصادر « الخير » . وهى الأوقاف التى تحبس على الخير العام ، يتنازل عنها أصحابها بغية رضاء الله وتقرباً إليه .

وفى مقدمة مفهوم « الخير » فى نظر الواقفين : العناية بالدعوة الإسلامية ، تعليما ونشراً ، وكان كل وقف يخصص مصرفه للتعليم الإسلامى ينظر عليه « شيخ الأزهر » من قبل صاحب الوقف ، ضماناً لمصرف الريع فيما خصص له وهو « التعليم » ، ورعاية الدعوة الإسلامية .

وكان « شيخ الأزهر » هو الرعى لشئون تعليم الدين فيه ، وشئون الدعوة الإسلامية ، كما كان هو الناظر على أوقاف المسلمين الخيرية على الدين .

وكان علماء الأزهر ، وطلابه ، يعيشون فى ظل هذا الاستقلال ، ويرعون فقط شيئاً واحداً فحسب وهو دين الله وتعاليمه : درساً وبحثاً ، وتعليما ونشراً ، محافظين فى أقوالهم باسم الإسلام على أن يجنبوا أنفسهم – بقدر ما يمكن – الخضوع تحت تأثير أى مؤثر داخلى أو خارجى .

ومن باب الاحتياط وإبعاداً لكل شبهة تأثير كانوا يختمون مايتحدثون عنه ، أو يفتون به بقولهم : « والله أعلم » .

واحتياطهم فى الرأى والحديث عن الإسلام إلى هذا الحد كان سبباً رئيسياً فى تمسكهم بأقوال السابقين فى كتبهم ، وفيما أثر عنهم من أقوال : وجرهم هذا للتقليد والحرص عليه إلى درجة أنهم أصبحوا يناوئون « الاجتهاد » والاستقلال فى الرأى عن السابقين قبلهم ، فيما تركوا من آراء فقهية ، رغم دعوة محمد بن تيمية المتأخرة . . علماء المسلمين جميعاً إلى أن يتصلوا اتصالا مباشراً بالقرآن ، دون أن يقفوا عند ما اجتهد فيه السابقون ممن قبلهم :

ولذا كانوا لايرون فى نظرهم قول ابن تيمية هذا ، ويعده الكثير منهم خارجاً عن أقوال الأئمة الأربعة .

وتبعاً لهذا التقليد دارت دراساتهم وبحوثهم وفتاواهم فى الكتاب الذى ألفوا الرجوع إليه والنقل عنه . وأصبح الكتاب المؤلف فى المادة المعينة عماد التعليم ، ومصدر الفتوى والرأى . وإن استبدل بآخر فى مادته فإما بكتاب موجز أو مطول على نمطه وفى موضوعه .

ولذا لم تنل الإصلاحات العديدة التى أدخلت على برامج التعليم فى الأزهر من الكتاب التقليدى ، لا فى وصفه ، ولا فى قيمته ، ولا فى الاحتفاظ به .

والدراسة وإن قامت أول عهد الأزهر بالتعليم الدينى على أساس كتاب ، يتلوه كتاب آخر فى مادته سبقه ، ويتلوه كتاب ثالث .. أو رابع .. أو خامس فى نفس المادة بعده ، فإن التغيير بسبب التقليد — الذى كان يطرأ فى عهد إصلاح لمناهج التعليم فيه فى فترة من فترات الإصلاح — كان لا ينال من الكتاب ، ولا من ترتيبه فى السبق أو فى البعدية ، وإنما كان يتناول الزمن وتقسيمه إلى مراحل : ابتدائية ، وثانوية ، وعالية ، تدرس فيها الكتب التى عهدت دراستها قبل الإصلاح ، وعلى نفس النمط الذى كان لها أولا ، قبل المراحل الدراسية التى قسمت حسب الزمن .

وعلى أية حال إذا التزم علماء الأزهر فى أمسه رأى الكتب التقليدية فى التعبير عن مبادىء الإسلام ، وحكمه فى شئون المسلمين ، فإنهم لم يقعوا — عن طريق استقلالهم فى تمويل التعليم والنشاط الدينى داخله وخارجه — تحت تأثير اتجاه سياسى محلى أو عالمى .

وكانوا بالأحرى أحراراً فيما يقولونه باسم الاسلام فى تكييف الأحداث ، وفى الحكم عليها —وفى تصرفات المسلمين : حكاماً، ومحكومين على السواء .

وبذلك كانت لهم مواقف ضد الظلم فى الداخل، كما كانت لهم أخرى ضد الاستعمار الأجنبى من الخارج . كما كانت لبعض الشخصيات الأزهرية فى أمسه على عهد استقلاله آراء حفظت كيان الأمة المصرية من أن تعصف بها عواصف الظلم والاستبداد ، مما كان يمارسه حكام مصر على عهد المماليك ، وعلى عهد العثمانيين سواء .

* ثم كان للأزهر ولرجاله تلك المواقف المشهورة فى وجه الغزاة الفرنسيين على عهد نابليون وضد الاحتلال البريطانى فى فتراته المختلفة ، وبالأخص فى ثورة سنة١٩١٩ مما يجعل كل مسلم فى الداخل والخارج يتذكر استقلال الأزهر وفاعليته باسم الاسلام ، وعلى أسس من مبادئه ، ثم يستخلص قيمته فى دعم كيان الأمة ، والحفاظ على روح العدل فيها ، فى الوقت الذى صان فيه تراث الأمة فى ثقافتها ، وروحيتها ، ولغتها العربية .

وهنا بعض النماذج التى تصور مدى استقلال الأزهر واستقلال علمائه فيما أبدوه من آراء تمس حياة الأمة فى عصورها المختلفة . وعلى أساس منها وقت الأمة نفسها من الضياع ، أو من الذوبان ، أو من المذلة والضيم ، كما أراد لها بعض حكامها ممن وفدوا عليها من : هنا .. وهناك .

(ا) ذكر الجبرتى فى تاريخه : أن الشيخ محمد بن سالم الحفنى الشافعى(١) كان قطب رحى الديار المصرية ، لايتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته . وكان فوق هذا عضواً فى ديوان الحكومة يمثل الشعب المصرى مع جماعة من إخوانه تمثيلا رائعاً ، حتى كان على باك الكبير(٢) —كان على شدته وقوة ملكه لايستطيع مقاومته ولا معاداته . وكان فى مناقشاته فى الديوان لايتردد أحياناً أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا عمدوا إلى ما يسىء إليه أو يضر بمصلحته : فقدوقف مرة يناقش فى إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين فى الصعيد ، وكان رأى الشيخ أن تلك الحملات الحربية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم ، ولم يتردد فى آخر خطبته القوية أن يصيح قائلا : « والله لن نسمح أن يسافر أحد ، وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبداً » .

(ب) وتشتد وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس سنة ١٧٩٥ فى تحصيل الأموال وتلفت الفلاحون إلى ملاذهم ، والتجأوا إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى (٣) ، ورجوا الشيخ فى أن ينقذهم من هذا الظلم ، فبعث الشيخ بمطالبة مراد بك(٤) ليكف الأمير الظالم عن ظلمه . ولما لم يجد الشيخ لمسعاه أثراً فى إصلاح الحال بالسعى السلمى دعا الناس إلى الثورة ، وكانت النفوس مستعدة لدعوته ، فاجتمع له كثيرون من أهل القاهرة ومن أهل الأطراف ، وأوشك الأمر أن يؤدى إلى ثورة دموية مدمرة ، وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف والناس مصرون على أن يوقفوا الحكام عند حد العدل والحق أو يواصلوا الجهاد ، وإن أدى ذلك إلى إراقة الدماء ، وبذل الأموال والأنفس . فرأى كبار الأمراء أن الأمر يوشك أن ينتهى إلى اضطراب لاقبل لهم به ، فذهبوا إلى بيت إبراهيم بك واجتمعوا به هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ

---

(١) تولى مشيخة الأزهر سنة ١٧٥٧ م

(٢) استقل بأمر مصر سنة ١٧٦٦ م

(٣) ولى مشيخة الأزهر (١٢٠٨ – ١٢٢٧هـ).

(٤) من زعماء المماليك فى أواخر القرن الثامن عشر .

السادات والشيخ النقيب ، والشيخ الشرقاوى، والشيخ البكرى ، والشيخ الأمير (١) . . ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانتهى الأمر بأن أعلن الأمراء أنهم تابوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم . وانعقد الصلح على شروط كتبها العلماء فى وثيقة يمكن أن نسميها بالوثيقة الاجتماعية أو الوثيقة السياسية ، وقد تضمنت أن الأمراء يتعهدون بالعدل ، ويتوبون عن المظالم ، ويعدون بالقيام بالواجبات التى يفرضها عليهم القانون والعرف من صرف الأموال على مستحقيها ، وإرسال غلال الحرمين إليها ، ورفع الضرائب المستحدثة ، ويكفون أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، وأن يسيروا فى الحكم سيرة حسنة ، وكان القاضى حاضرا بالمجلس فوثق ذلك وانحلت الفتنة ورجع المشايخ وحولهم وأمامهم وخلفهم جملة من العامة فرحين بالنصر الكبير (٢) . فلم يكتف العلماء بالنقد والنصح حينما انحرف الأمير ، وإنما انتهجوا منهجاً عملياً يقومون به المعوج ، ويرجعون به الحق إلى نصابه .

(جـ) ويروى الجبرتى أيضاً (٣) أن ثورة أخرى قامت من الأزهر بقيادة الشيخ الدردير (٤) وتتلخص وقائعها فى أنه سنة ١٢٠٠هـ نهب (حسين بك شفت) (٥) وجنده .. داراً بحى الحسينية لشخص يدعى أحمد سالم الجزار وقد أثار هذا الحادث ثائرة الأهالى ، فاتفقوا على الالتجاء إلى الشيخ الدردير ، وكان من أقوى العلماء شخصية ، وأوسعهم نفوذاً . وفى اليوم التالى لهذا الحادث اجتمع فريق من الأهالى وقصدوا شطر الأزهر ، وأخبروا الشيخ الدردير بما حدث فأثار النبأ الشيخ الذى عبر عن استيائه لاستهتار الأمراء بمصالح الشعب وتعسفهم فى معاملته ، وأعلن فى الجماهير انضمامه إليهم وأمر بدق الطبول على منارات المساجد إيذاناً بالاستعداد للقتال ، وأسرع

---

(١) وكلهم من كبار رجال الأزهر .
(٢) راجع تاريخ الجبرتى جـ ٢ص ٢٥٨
(٣) جـ ٢ ص ١٠٣
(٤) هو أحمد بن محمد بن أحمد العدوى الشهير بالدردير (١١٢٧ – ١٢٠١ هـ) .
(٥) أحد الأمراء العثمانيين .

الأهالى نحو الأزهر وعولوا على النضال ، ولما اتصلت أنباء تجمع الجماهير الثائرة بمسامع إبراهيم بك وبلغه تصميم الشيخ الدردير على قيادة الشعب ضد الأمراء ، خشى أن يستفحل هذا الخطر ، ويفقد بذلك ما يتمتع به من نفوذ فى مصر ، فأوفد نائبه فى صحبة أحد الأمراء إلى الشيخ الدردير يعبرون له عن أسف الأمير لما حدث. ووعدوه بأن يكف أيدى الأمراء عن أذى الناس كما قرر الأمير لوم حسين بك شفت ، وأمره برد ما نهبه إلى صاحبه .

(د) وعندما أشيع مجىء الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مدة حكم الطاغيتين مراد بك وإبراهيم بك بقيادة القبودان حسن باشا ، ذعر مراد بك وإبراهيم بك خوفاً من أن ينتهز الشعب هذه الفرصة ليثور على حكمهما ، فحاول المماليك التقرب إلى العلماء زعماء الشعب والتذلل لهم ، يقول الجبرتى(١) : «فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكرى ثم الشيخ العروسى ثم الشيخ الدردير ، وصار يبكى لهم ، وتصاغر فى نفسه جداً ، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه ، أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فإنه كان يخاف ذلك جداً» .

(هـ) ويتطلع الشعب إلى العلماء لإنقاذهم من ظلم الوالى التركى خورشيد باشا(٢) وظلم جنوده ، ويقود الحملة السيد عمر مكرم (٣) واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا ، وتولية محمد على عليهم بشروطهم وبأن ينزل على مشورة العلماء . وولاه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى سنة ١٨٠٥م ، وحاصر عمر مكرم القلعة على خورشيد باشا ، وأعلنه بالعزل ، فقال له خورشيد باشا : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم** » ؟ فأجابه عمر مكرم بقوله : أولوا الأمر هم العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . فقال خورشيد : وليت بأمر الخليفة فلا أعزل بأمر الفلاحين . فقال عمر مكرم : للناس أن

---

(١) تاريخه جـ ٢ ص ١١٨

(٢) فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

(٤) (١٧٥٥ - ١٨٢٢) .

يعزلوا الحاكم الظالم وأن يخلعوا حتى الخليفة إذا سار فيهم بالجور . وحسم السلطان الأمر بإصدار فرمان فى سنة ١٨٠٥ يتضمن تثبيت محمد على فى الولاية على مصر « حيث رضى العلماء والرعية ، وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر » .

(و) ويقود الأزهر الشعب لمقاومة الغزو الفرنسى حينما جاء نابليون إلى مصر ويغتال طالب أزهرى هو سليمان الحلبى(١) «كليبر » فيعدم الحلبى مع أربعة من شيوخ الأزهر وطلابه ، وكان نابليون قد أعدم من قبل ثلاثة عشر عالماً من علماء الأزهر سنة ١٧٩٨ حرضوا الناس على الثورة وقادوا المظاهرات احتجاجاً على الغزو الفرنسى .

كما قاد السيد عمر مكرم الشعب عند حملة «فريزر» لصد الغزو الإنجليزى(٢) ، وحشد السيد عمر مكرم المقاومين ، وأقام الاستحكامات الدفاعية وحفر الخنادق حول القاهرة ، وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشدة حيث يقوم العمال بعمل الاستحكامات الحربية ، ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحياناً يشاركهم إقامة هذه الاستحكامات فيثير فيهم الحماس والوطنية ، وحب الاستشهاد فى سبيل الله والدفاع عن الوطن ، حتى باءت حملة «فريزر» بالفشل ورجعت بالخسران .

ولم تكن المواقف السابقة منبعثة من غلظة فى الطبع ، أو طبيعة عصبية مشددة . وإنما كان انبعاثها من مجموعة من الأخلاق والمثل التزم بها هؤلاء العلماء كجزء من إيمانهم بالإسلام وتعاليمه ، ووفاء لما أملته العامة فيهم . فكانوا عند حسن ظنهم .

ويحكى التاريخ أن السلطان العثمانى عندما نزل على حكم العلماء بزعامة السيد عمر مكرم وعزله والى مصر الظالم خورشيد باشا هنا تجلت سماحة السيد

---

(١) طالب سورى كان يدرس بالأزهر ، واغتال القائد سنة ١٨٠٠ م .
(٢) سنة ١٨٠٧ م .

عمر مكرم حيث أرسل مائتين من الإبل حملت متاع الوالى والمحاصرين معه من رجال ونساء وأنزله فى ضيافته بضعة أيام ليحميه من غضب الشعب وييسر له سبيل النجاة .

ويعتذر شيخ الإسلام زكريا الأنصارى عن منصب قاضى القضاة حينما عرض عليه الحاكم قايتباى ، فأبى الأنصارى. وألح قايتباى ، وقال للشيخ : إن أردت نزلت ماشياً بين يديك أقود بغلتك إلى أن أوصلك إلى بيتك ، مسترضياً الشيخ . وهنا قبل من الشيخ من اللوم والتأنيب والتعنيف الشديد مع أنه هو الذى ولاه .

وقال له : « أيها الملك ، تب لنفسك ، فقد كنت عدماً فصرت وجوداً ، وكنت رقيقاً فصرت حراً ، وكنت أسيراً فصرت أميراً ، وكنت أميراً فصرت ملكا ، فلما صرت ملكا تجبرت ونسيت مبدأك ومنتهاك »(١) .

٢ ــ الأزهر منذ بداية القرن العشرين :

• ابتدأت فاعلية الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ م مع بداية القرن العشرين فيما يتعلق بالأزهر وأداء رسالته . فالبريطانيون الذين احتلوا مصر الآن لصالح صناعة النسيج فى « لانكشير » لاينسون دور الأزهر فى مقاومة الغزو الفرنسى فى عهد « نابليون بونابرت » (١٧٦٩ ــ ١٨٢١م) حينما احتل مصر فى غزواته فى الشرق والغرب . ولذا ركزت السياسة البريطانية فى التعليم فى مصر على أمرين :

أولا : على ازدواج التعليم فى مصر ، بعد فصل التعليم فى الأزهر عن التعليم فى الدولة . وقد كان نمط التعليم فى الأزهر إلى عهد محمد على هو النمط الوحيد أو الأصيل ، كما كان التعليم فى قرى مصر جميعها مؤهلا فقط للالتحاق بالأزهر والتخرج فيه .

---

(١) (٨٢٣ – ٩٢٦) ٢٠٠ – وردت القصة فى الكواكب السائرة ص ١٩٦ .

وعلى أساس من ازدواج التعليم يصبح هناك دينى فى الآزهر ، وآخر غير دينى أو علمانى فى غير الأزهر من المدارس فى مراحلها المختلفة التى تنشئها وزارة المعارف العمومية إذ ذاك .

وثانيا: على إلغاء استقلال الأزهرفى تمويله وإلحاقه بجهة حكومية حتى تكون للادارة القائمة فى مصر فىعهد من العهود الإشراف على التعليم فيه ، وكذلك على توجيه رجاله — بقدر ما يمكن — فيما يعلنونه من آراءوفتاوى باسم الاسلام ، ضماناً للوجود البريطانى ، أو للوجود الأوروبى على الأقل . وهو وجود رأسمالى فى اقتصاده ، وعلمانى فى سياسته ، ومسيحى فى إيمانه ، وإن لم يكن إيماناً كنسياً .

* أما الأمر الأول فقد سارت فيه حكومة الاحتلال البريطانى فى مصر خطوات واسعة ، حتى إنها عمدت إلى نمط التعليم الأزهرى وأنشأت بعض المؤسسات التعليمية التى تنافس الأزهرفيه،فأنشأت مدرسة القضاء الشرعى ، ومدرسة دار العلوم . الأولى لتخريج قضاة فى المحاكم الشرعية ، والثانية لتخريج معلم اللغة العربية فى مدارس وزارة المعارف الابتدائية والثانوية . ثم قصدت كذلك إلى التعليم فى القرى فأنشأت « المكاتب الراقية » تتبع وزارة المعارف بجانب « الكتاتيب » التى كانت تؤهل لحفظ القرآن الكريم ، وتعد الحافظين فيها إلى الالتحاق بالأزهر . ولكى تعد الادارة البريطانيةمعلما غير أزهرى لهذه المكاتب الراقية أنشأت مدارس المعلمين الأولية ، وهى تنافس مرحلة التعليم الابتدائى فى الأزهر .

والحجة فى إنشاء هذه المدارس التى تنافس الأزهر فى مراحل تعليمه المختلفة . . كانت تطوير صاحب الثقافة الاسلامية ، وجعله صالحاً لتولى الوظائف الحكومية فى الدولة . لأن الأزهر — وهو صاحب ثقافة إسلامية— يرتبط فى طريقة تعليمه وتعلمه بما يجعلهغير صالح لنقلالمعلومات الاسلامية إلى تلاميذ فى مستويات مختلفة فى القدرة على الفهم والتفكير ، بجانب أنهم لا يحفظون القــرآن الكريم الذى هو الأساس الذى تدور عليه الثقافة فى الأزهر !! .

وتبدو هذه الحجة فى ظاهرها مقنعة ، ولكن الغرض الأصيل لسياسة الاحتلال البريطانى فى التعليم فى مصر هو إضعاف الأزهر ، وذلك بخلق منافس فى مجال تعليمه، بجانب المنافس الآخر وهو صاحب التعليم غير الدينى أو العلمانى أو التعليم المدنى .

وتبعاً لهذه السياسة التعليمية فى عهد الاحتلال البريطانى فى مصر انقسم المجتمع المصرى فى التوجيه إلى ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى: صاحبة التعليم فى الأزهر .

والطائفة الثانية : الطائفة المنافسة للأزهر فى الثقافة الإسلامية ، وهى التى تتخرج فى مدارس القضاء الشرعى ، ودار العلوم ،والمعلمين الأولية .

والطائفة الثالثة : وهى صاحب التعليم اللاديني ، والعلمانى أو المدنى ، وهى التى تتخرج فى مدارس وزارة المعارف .

وأخذت الانفصالية بين هذه الطوائف الثلاث فى المجتمع المصرى تلعب دورها فى الخصومة والتنابذ بينها بالألقاب ، كما أخذت رواسبها تؤدى أثرها فى المجتمع وفى تحديد « النظرة » التى تنظر بها كل طائفة للأخرى .

فبينما الأزهريون ينظرون إلى من عداهم من الطائفتين الأخريين بنظرة تقوم على عدم الرضا ، كما تقوم على التوجس منهم — إذا بهاتين الطائفتين معاً تنظران إلى رجال الأزهر على أنهم غير صالحين للحياة المعاصرة وأنهم يعيشون بتفكيرهم فى الماضى ، وهم لذلك « رجعيون » .

وبينما طائفة التعليم المدنى تنظر إلى الأخرى المنافسة لها فى الثقافة الاسلامية للأزهر ورجاله على أنها لم تبلغ مبلغ ما وصلت إليه هى من «التجديد» ولذلك فهى لا تختلف كثيراً عن طائفة الأزهريين إذا بالطائفة المنافسة فى الثقافة الإسلامية ترى مثلها الأعلى فى « تجديد » العلمانيين أو المدنيين . ولذلك بقدر ما تبتعد عن الأزهر . . تقترب من المجددين فى مسعاها وفى خط تفكيرها .

وهكذا وصل الاحتلال البريطاني إلى نقل بعض النشاط الفكرى للمصريين من معارضته هو إلى معارضة كل طائفة للأخرى ومخاصمتها . وتحققت بذلك حكمته القائلة : « فرق تسد » . والتفرقة فى الثقافة والتوجيه هى أخطر ضروب التفرقة .

كما ابتدأ الاحتلال البريطاني ينتفع بهذه الفرقة عن طريق تقريب البعض من المتعلمين فى مصر إلى اتجاهه فى السياسة ، والفكر ، والثقافة .

و « التجديد » الذى ظهرت موجته بعد تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ فى مصر ، وتجلى بعد قيام الجامعة المصرية فى سنة ١٩٢٥ ، ووصل إلى قمته بعد معاهدة ١٩٣٦ — كما ظهر فى كتاب « تجديد الثقافة فى مصر » — يرجع إلى سياسة الاحتلال البريطاني فى التعليم فى مصر ، أكثر مما يرجع إلى تقدير الفكر العربى نفسه ، وإلى قيمة السياسة العربية فى مصر ، وفى غيرها من البلاد التى احتلت فى إفريقيا وآسيا .

* — **أما الأمر الثانى :** وهو إلغاء استقلال الأزهر فى تمويله وإخضاعه إلى جهة حكومية فى الادارة المصرية فإن الاحتلال البريطاني — وهو صورة من صوره السياسية الأوروبية الغربية — له خبرة بموقف « الكنيسة » من « الدولة » فى الغرب ، وهو موقف لا تملك فيه الدولة هناك أن تملى رأيها السياسى على الكنيسة ، لا بسبب منزلة الكنيسة فى نفوس التابعين لها وسيطرتها عليهم سيطرة تمكنها من « الانتقام » ممن يخرجون عليها من هؤلاء الأتباع ، ولكن بسبب رئيسى آخر ، وهو : استقلالها فى التمويل والإنفاق على رسالتها من أموال تملكها وتشرف عليها إشرافاً مباشراً أو غير مباشر .

وهذه التجربة للاحتلال البريطاني أراد أن يفيد منها فى إضعاف مقاومة الأزهر لسياسة الحكومة المصرية التى تخضع لتوجيهه ، إن لم يستطع القضاء عليها تماماً .

وهنا فى ١٩١٥ — بعد إعلان الحماية على مصر فى سنة ١٩١٤ ، وبعد قيام الحرب العالمية الأولى — رأى المستشار المالى للحكومة المصرية ، وهو من

رجال سلطة الاحتلال : أن يقوم بتجربة مثيرة فى مجال الأوقاف الخيرية المرصودة على التعليم فى الأزهر ، أو التى يتنظر عليها شيخ الأزهر ، فأرسل إلى شيخ الأزهر كتابا يعرض عليه مساعدة الحكومة المصرية المالية بدعوى تحسين « الوضع المالى لعلماء الأزهر » واقترح أن تقدم وزارة المالية المصرية كل عام ما يحتاجه الأزهر من مال ، على أن تقوم الوزارة منذ هذا العام وهو عام ١٩١٥ بتقديم مبلغ خمسة آلاف جنيه بدلا من الثلاثة آلاف التى أتت بها حصيلة أوقاف الأزهر ، على أن تزيد الوزارة كل عام بمقدار الحاجة التى يراها شيخ الأزهر ، وفى مقابل ذلك تشرف الحكومة المصرية على أوقاف الأزهر ، ضماناً لحصولها على الريع الذى تأتى به .

ومنذ ذلك الوقت ابتدأ يضمحل استقلال الأزهر ، وتقوى التبعية للادارة الحكومية ، والتوجيه السياسى للحكومة . كما ابتدأ الأزهر يصفى أصحاب الرأى فيه ، ويخرج جيلا جديداً تتبعه أجيال أخرى فى الإمعان فى التبعية السياسية ، ويصغى للسياسة وتوجيهها فيما يبديه علماؤه من فتاوى وآراء باسم الاسلام واستناداً إلى مبادئه .

وكانت ثورة ١٩١٩ الوطنية تكاد تكون آخر المواقف الأزهرية التى تميز بها عهد استقلال الأزهر ، والتى وقف فيها مواقفه المشهورة ضد الاحتلال البريطانى والحماية البريطانية ، وضد الغزو الأجنبى أو الظلم على العموم .

ويكاد كذلك يكون المغفور له الشيخ عبد المجيد سليم هو .. آخر شيوخ الأزهر الذى أثر فيهم وفى آرائهم عهد استقلال الأزهر إلى درجة كبيرة . وما ينسب إليه من تصريح : « تقتير هنا وإسراف هناك » فى مواجهة سياسة الملك فاروق فى الداخل بين الطوائف المختلفة ، وفى الخارج فى العبث والمجون وقد كان بجزيرة كابرى فى ذلك الوقت بإيطاليا — أمر معروف . وكذلك فتواه المشهورة بتحريم مراقصة الأجنبية ، وقد قصد بها أيضاً الملك فى تردده على « أوبرج الأهرام » بالجيزة .

الاستغلال السياسى الحزبى للأزهر :

ومنذ تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب بريطانيا باستقلال مصر وإعلان الملك فؤاد دستور ١٩٢٣ ، وتكوين الأحزاب السياسية على أساس منه لممارسة الحياة البرلمانية ، التى كانت للغرب . ومنذ ذاك أخذت السياسة — سواء سياسة الأحزاب أو سياسة القصر — تقترب من الأزهر ، كى تستغل سمعته العالمية ومكانته فى مصر ، ومواقفه التاريخية فى السياسة المصرية. وأصبح هناك تصارع بين الأحـزاب السياسية : الوفد ، والأحرار الدستوريين ، والحزب الوطنى ، ثم فيما بعد دخل معها حزب الاتحاد ، ثم الحزب السعدى ، فيما بين بعضها بعضاً ، وكذلك فيما بينها من جانب والقصر أو « السراى » من جانب آخر .

وأضحى علماء الأزهر :

(ا) بعض يتبع سياسة القصر مباشرة ، أوضمن سياسة حزب الاتحاد أو حزب نشأت باشا .

(ب) وبعض آخر يرتبط بسياسة الوفد الحزبية .

(ج) والبعض الآخر يسير مع الأحرار الدستوريين .

(د) وبعض رابع يخضع لتوجيه الحزب السعدى .

وانقسم الطلاب فى نشاطهم الخارجى والسياسى وتوزعوا على هذه الأحزاب ، على نمط ما صنع العلماء .

وقوانين « إصلاح الأزهر » التى صدرت قبل عام ١٩٥٢ — أى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — كانت لإغراء الأزهريين علماء وطلاباً ، إغراء حزبياً وسياسياً .

فقانون سنة ١٩٢٥ أصدره إسماعيل صدقى باشا وقد كان وزيراً للداخلية فى حكومة « إنقاذ ما يمكن إنقاذه » وقانون سنة ١٩٣٦ أصدرته حكومة توفيق نسيم باشا الائتلافية .

وكلا القانونين صدرا بإيحاء من « السراى » واستهدف إصدارهما تقريب الأزهر إلى سياسة الملك ضد « الوفد » على الخصوص ، وضد شعبية هذا الحزب التى كان يتمتع بها فى مصر إذ ذاك .

وقانون سنة ١٩٢٥ عالج تنظيم مراحل الدراسة فى الأزهر ومناهج التعليم ، بحيث يكون للمتخرجين فيه « صلاحية » الالتحاق بوظائف التعليم فى المؤسسات الحكومية التعليمية - بجانب المعاهد الدينية الأزهرية - والمؤسسات الثقافية والتشريعية التابعة للدولة .

كما عالج نفس الغرض قانون سنة ١٩٣٦ ، لكنه استحدث فى مرحلة التعليم العالى بالأزهر نمطاً على غرار نمط التعليم فى جامعة « فؤاد » — الجامعة المصرية سابقاً — وهو تقسيم فروع الدراسة فى هذه المرحلة إلى كليات . وبفاعلية هذا القانون تم إنشاء كليات ثلاث فى الأزهر : أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية .

وسياسة « القصر » أوصت بهذين القانونين اللذين وكل إليهما «إعادة تنظيم الأزهر » تلبية للصيحات المتكررة التى كان يصدرها علماء الأزهر وطلابه من وقت لآخر ، مضربين عن الدراسة مرة ، ومهددين بالإضراب مرات بغية « المساواة » فى الوظائف الحكومية سواء فى شغل تلك التى لزملائهم الذين يتخرجون فى دار العلوم ، أو فى القضاء الشرعى ، أو فى المعلمين الأولية ، وبغية أن يكون لهم الحق فى شغلها فى مجالى التعليم والقضاء ، وفى المرتبات التى يتقاضونها .

وهنا نرى أن سياسة الاحتلال البريطانى فى إلحاق الأزهر فى تمويله بالحكومة المصرية — بدلا من أوقاف الخيرات — ابتدأت تنعكس على التوجيه فى الأزهر ، كما ابتدأت تحدد للأزهريين « الغاية » من الأزهر نفسه ، وهى غاية لا تخرج عن كونه مؤسسة للتعليم على نمط معين ، ولثقافة معينة ، تساعد المتخرجين فيها على الحصول على درجات مالية فى وظائف الحكومة المحلية .

وكلما مر الزمن على « التبعية » للتوجيه الحكومى للأزهر ، كلما استقر فى نفوس الأزهريين أن رسالتهم هى أن يحققوا « المساواة » بالآخرين فى وظائف الدولة وفى الحصول على مرتباتها ، وبالتالى كذلك كلما ابتعدت من الزاوية التى ينظرون منها إلى الحياة ، وإلى تلك الرسالة التى كانت لهم على عهد الاستقلال . وهى رسالة الإسلام : تعليما ، ودعوة وفتوى ، ورأياً ، وموقفاً إزاء الأحداث والمشاكل الهامة بين المسلمين . وأصبحت «مشكلات الأزهر » فى نظر الحكومة المصرية – أية حكومة إن كانت للأزهريين مشكلة : هى مشكلة « المساواة » فى الوظيفة والدرجة المالية للوظيفة .

وأصبح « العرف الحكومى » بعد تبلور سياسة الأحزاب المصرية وسياسة «القصر» فى الأزهر هو : أن الأزهر يعلن الولاء للسياسة الحكومية القائمة . فإن خالفها فى فترة من الفترات فلسبب حزبى سياسى . أى بسبب سيطرة أحد الأحزاب السياسية ، أو سيطرة القصر على نشاط بعض العلماء والطلاب فيه ، ولكن ليس بسبب الدين لذات الدين .

والنصف الأول من القرن العشرين إن بدأ فيه خلط بين مظاهر الاستقلال ومظاهر التبعية للأزهر فتلك سنة الحياة الإنسانية فى الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى تقابلها تماماً . فالضد لا ينتقل إلى ضده دفعة واحدة ، وإنما لابد أن تكون هناك مرحلة انتقالية بين الضدين ، تمثل بعضاً مختلطاً من مظاهر كل منهما .

ولكن بانتهاء هذا النصف الأول من القرن العشرين ينتهى عصر استقلال الأزهر وتبتدىء معالم تبعيته تتضح للعيان .

وكذلك بانتهاء النصف الأول من قرننا العشرين أصبح الأزهر معهداً للتخرج للوظائف المختلفة وليس مركزاً للفتوى والرأى ، وليس كذلك مرجعاً ترجع إليه الأمة الإسلامية فى مصر – أو فى غيرها – فى تحديد الموقف الإسلامى من الأحداث والتغييرات ، مجرداً عن أية تبعية سياسية لأية جهة أو هيئة سياسية داخلية أو خارجية .

ثورة ٢٣ يوليو وتطوير الأزهر :

* ونظرة الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لمشاكل الأزهر وإصلاحه لم تخرج عن إطار النظرة الحكومية السابقة إلى الأزهر فى مشاكله وإصلاحاته . وهى مشكلة « تحقيق المساواة » فى الوظيفة والدرجة المالية للوظيفة .

وقانون تطوير الأزهر الذى أصدرته الثورة فى سنة ١٩٦١ هو محاولة من محاولات « الإصلاح » التى تمت قبلها فى سنة ١٩٢٥ ، وفى سنة ١٩٣٦ ، والتى قصد منها القضاء على « الانفصالية » بين متخرجى الأزهر والمتخرجين فى معاهد التعليم الأخرى .

ولكنه ذهب خطوات أبعد فى القضاء على هذه « الانفصالية » التى رشحتها سياسة الاحتـــلال البريطانى فى التعليم فى مصر تحت إشراف القس « دنلوب » .

والخطوات الجديدة فى هذا التطوير ليست تحقيق المساواة التامة فى الوظيفة والدرجة المالية لها ، وإنما فى إلحاق أنواع من التعليم فى المرحلة العالية من مراحل الدراسة فيه لم يستحدثها قانون سنة ١٩٢٥، و لا قانون سنة ١٩٣٦ وهى الأنواع التى يمثلها عدد من الكليات العلمية والفنية . بجانب الكليات التقليدية الثلاث السابقة .

فإلحاق هذه الكليات بجامعة الأزهـــر يزيل كل لبس فى التصور عن « الانفصالية » بين الأزهر والمؤسسات التعليمية الأخرى فى مصر .

وإنشاء هذه الكليات العلمية والفنية بجامعة الأزهر أتاح الفرصة لطالب الأزهر فى مرحلتى التعليم الاعدادى والثانوى أن يدرس المقررات التى يدرسها المتخرج فى مدارس وزارة التربية والتعليم .

كما أتاح للحاصل على الشهادة الثانوية من مدارس هذه الوزارة الالتحاق بكليات الأزهر جميعها ، على أن يؤدى فى صورة ما ، امتحاناً فى مستوى

التعليم الديني والعربي الذى يحصل عليه طالب الأزهر فى المعاهد الأزهرية بأقسامها المختلفة .

وهكذا لا يبقى هناك مجال لانفصالية التعليم فى مصر اليوم، هذا الهدف الذى هو عدم انفصالية التعليم . . الذى قد سعى إليه الاحتلال البريطانى ، واكتمل فى عهد الثورة المصرية الآن . وما زالت الفجوة الثقافية بين طوائف المثقفين ، والاختلاف فى النظرة إلى الحياة بين المواطنين ، وكذلك تعدد التوجيه فى التفكير فى المجتمع المصرى ، لها أثرها فى المجتمع ، وليس من السهل القضاء عليها فى جيل أو جيلين .

وكأن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى عنايتها بإصلاح الأزهر لم تعن به إلا ضمن دائرة القضاء على « رواسب » الاستعمار البريطانى فى مصر : فى خلقه طوائف عديدة بين المثقفين ، وفى ميله بالسياسة المصرية إلى السياسة الغربية، وبالتفكير المصرى نحو المثل الغربية .

وقانون الثورة المصرية لتطوير الأزهر سنة ١٩٦١ — بإضافة بعض المقررات فى مواد أخرى غير المواد العربية والإسلامية فى مناهج التعليم فى المراحل الثلاث : الابتدائية والاعدادية والثانوية — استهدف تقريب طالب الأزهر من الطالب الآخر فى مدارس الوزارة كى تعادل فى مستواها مستوى المعاهد الأزهرية فيها ، وحتى يقترب كذلك طالب الوزارة من طالب الأزهر فى اتجاه موحد للثقافة قبل مرحلة الجامعة .

إن الخشية الآن من قانون تطوير الأزهر أن يحمل طلاب المرحلة الابتدائية فيه على أن ينتقلوا منها إلى مرحلة الاعدادى والثانوى فى مدارس وزارة التربية — والقانون يجيز ذلك — اختصاراً لزمن الدراسة فى هذه المدارس قبل الجامعة من جانب ، وتفادياً من ازدواج برامج التعليم فى معاهد الأزهر إن بقوا فيها من جانب آخر .

وعندئذ يكون قانون تطوير الأزهر — فى عهد الثورة المصرية — عاملا

فى قصر التعليم الأزهرى على مرحلة الابتدائى وحده . وبذلك يضاف فى النصف الثانى من القرن العشرين إلى « تبعية » الأزهر للسياسةالحكوميةالتى تمت فى النصف الأول نقص آخر . . وهو : عدم كفاية مستوى التعليم فى الأزهر لفهم الثقافة الإسلامية ، فضلا عن عدم كفايته للتصدى للدعوة الإسلامية ، والرأى الإسلامى ،والموقف الإسلامى ،إزاء الأحداث والتغيرات ومشاكل المجتمعات الإسلامية .

وأزهر النصف الثانى من القرن العشرين الآن يختلف اختلافاً كبيراً عن أزهر : « ما قبل القرن العشرين » ، كما يختلف عن أزهر : «النصف الأول» من هذا القرن . فالأزهر المعاصر ، أزهر يدور برأيه ، وبموقفه ، فى مجال السياسة التى ترسم له ، ويحاول أن يجذب إلى رأيه وموقفه : الاسلام جذباً . وقد يشده إليه شداً عنيفاً ، إرضاء للحاكم السياسى ، وإبقاء على الوظيفة التى يتقلدها صاحب الرأى أو الموقف . حتى أصبحت الاشتراكية العلمية — وهى اشتراكية ماركس ، وبلشفية لينين — تجد لها تقديراً فى بحوث علماء الأزهر يتقربون بها إلى الحاكم الاشتراكى ، ويضفون عليها سمة من الاسلام ، والاسلام فى جوهره بعيد عنها كل البعد.. وحتى أصبحت موسكو يحج اليها الإمام الأكبر شيخ الأزهر كما يحج إلى مكة مهبط الوحى والرسالة ، وربما قبل أن يحج إلى هذا البلد الأمين .

وأخطر مرحلة يمر بها الاسلام الآن هى تلك المرحلة الحاضرة التى يشترى فيها علماء الاسلام بآيات الله ثمناً قليلا . . هى تلك المرحلة التى يجرأ فيها من ينتسب إلى دين الله على تطويع كتاب الله لهوى الحاكم ، بينما يضعف ويستخزى فلا يقول كلمة الحق فى وجهه .

ولا يقل خطر العلماء فى هذه المرحلة فى الحيلولة بين الشباب المسلم المعاصر والرؤية الواضحة للاسلام عن أولئكم الأعداء الذين يثيرون الاتهامات والشبه لدين الله ولرسوله عليه الصلاة والسلام .

محتويات الكتاب

صفحة

كتب للمـــؤلف

١ ـ الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى	الطبعة الثامنة
٢ ـ تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظرية والتطبيق	الطبعة الثانية
٣ ـ الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة	الطبعة الثانية
٤ ـ خمس رسائل للشباب المسلم المعاصر	الطبعة الثانية
٥ ـ الجانب الالهى من التفكير الاسلامى	الطبعة الثامنة
٦ ـ الفكر الاسلامى فى تطوره	الطبعة الثامنة
٧ ـ الاسلام فى حياة المسلم	الطبعة الخامسة
٨ ـ رأى الدين بين السائل والمجيب جزآن معا ـ مزيدة ومنقحة	الطبعة الثالثة
٩ ـ نحو القرآن	الطبعة الأولى
١٠ـ القرآن والمجتمع	الطبعة الأولى
١١ ـ من مفاهيم القرآن ـ فى العقيدة والسلوك	الطبعة الأولى
١٢ ـ منهج القرآن ـ فى تطوير المجتمع	الطبعة الأولى
١٣ ـ المجتمع الحضارى وتحدياته من توجيه القرآن الكريم	الطبعةالأولى
١٤ـ القرآن ٠٠ فى مواجهة المادية	
١٥ـ الاسلام فى الواقع الايديولوجى المعاصر	الطبعة الثامنة
١٦ ـ طبقية المجتمع الأوروبى وانعكاس آثارها على المجتمع الاسلامى	الطبعة الثانية
١٧ ـ نظام التأمين فى هدى الاسلام وضرورة المجتمع المعاصر	الطبعة الأولى
١٨ ـ الاسلام ونظم الحكم المعاصرة	الطبعة الثانية
١٩ ـ غيوم تحجب الاسلام	الطبعة الأولى
٢٠ ـ الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم	الطبعة الأولى
٢١ ـ الدين والحضارة الانسانية	الطبعة الثالثة
٢٢ ـ عقبات فى طريق الاسلام	
٢٣ ـ الاسلام والادارة ـ الحكومة ـ	
٢٤ ـ الاسلام والاقتصاد	
٢٥ ـ الاسلام دعوة وليس ثورة	
٢٦ ـ الاسلام واتجاه المرأة المسلمة المعاصرة	
٢٧ ـ مستقبل الاسلام والقرن الخامس عشر الهجرى	
٢٨ ـ الاسلام والرق	
٢٩ ـ مشكلات المجتمعات الاسلامية والفراغ من الاسلام	

للمؤلف : فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

أولا : تفسير السور المكية :

١ ـ سورة الأنعام
٢ ـ سورة الأعراف
٣ ـ سورة يونس
٤ ـ سورة هــود
٥ ـ سورة يوسف
٦ ـ سورة الرعد
٧ ـ سورة ابراهيم
٨ ـ سورة الحجر
٩ ـ سورة النحل
١٠ـ سورة الاسراء
١١ـ سورة الكهف
١٢ـ سورة مريم
١٣ـ سورة طه
١٤ـ سورة الأنبياء
١٥ـ سورة المؤمنون
١٦ـ سورة الفرقان
١٧ـ سورة الشعراء
١٨ ـ سورة النمل
١٩ـ سورة القصص
٢٠ـ سورة العنكبوت
٢١ـ سورة الصافات
٢٢ـ سورة الجن
٢٣ ـ جزء عم